الدولة اليهودية

تيودور هيرتزل

ترجمة
محمد فاضل

مكتبة الشروق الدولية

الطبعـــــة الأولى
لمكتبة الشروق الدولية
١٤٢٨ هـ ـــ سبتمبر ٢٠٠٧ م



٩ شارع السعادة ـ أبراج عثمان ـ روكسى ـ القاهرة
تليفون وفاكس: ٢٤٥٠١٢٢٩ - ٢٤٥٠١٢٢٨ ـ ٢٢٥٦٥٩٣٩
Email: < shoroukintl @ hotmail. com >
< shoroukintl @ yahoo.com >

الدولة اليهودية

تيودور هيرتزل

ترجمة

محمد فاضل



المحتويات

تقـديم

ولد هيرتزل فى بوادبست ـ المجر فى عام ١٨٦٠م .

قال إنه أحس بوطأة معاداة السامية منذ مراحل عمره الأولى ، أثناء ذهابه للمدرسة الثانوية . . . وإلى أن عمل مراسلاً صحفيًا فى پاريس . . .

ثم جاءت قضية اتهام الضابط الفرنسى اليهودى دريفوس بالتجسس لتفجر فيه ـ حسب قوله ـ صهيونيته .

أيقن هيرتزل بأن مسألة ذوبان اليهود فى مجتمعاتهم الأوروپية ، وحتى فى أمريكا ، وقبول تلك المجتمعات لهم ما هى إلا سراب ، وأن التنوير الأوروپى والكلام عن حقوق الإنسان والمواطنة لن يجدى فى أن يعيش اليهود كمواطنين من الدرجة الأولى ، وتوصل إلى أن الحل هو إنشاء دولة يهودية ، تجمع يهود العالم ، وليس هناك أجدر من فلسطين ، أرض الميعاد ، بذلك .

صدرت الطبعة الأولى للكتاب عام ١٨٩٦م باللغة الألمانية فى ڤيينا ، والترجمة التى بين يدى القارئ هى عن الترجمة الإنجليزية التى نشرها مجلس الطوارئ الصهيونى الأمريكى .

والكتاب هو مشروع يهودى فى نهاية القرن التاسع عشر لإقامة الدولة اليهودية فى فلسطين ، ذلك المشروع الذى تحقق عام ١٩٤٨م ، وإلى الآن .

عادل المعلم

تمهيـــد

قد يتعجب بعض القراء عندما يطالعون كتاب هيرتزل «الدولة اليهودية» ويجدونه يشتكى ويكرر شكواه من اضطهاد أوروپا وأمريكا لليهود، فى زمانه، وقبل زمانه، بل حتى وفى توقعاته للمستقبل، فى أن يستمر اضطهاد اليهود فى كل مكان يحلون فيه، كما كان الحال دائمًا حسب قوله.

فقد اعتاد العرب والمسلمون، بل ومعظم العالم، على انحياز أوروپا الغربية الكبير لإسرائيل - دولة اليهود - والانحياز الأمريكى شبه المطلق لإسرائيل.

لذلك التحيز بداية، وكل ما له بداية، فله نهاية. ولنبدأ معًا القصة متعددة الجذور، فمنها جذر دينى، قائم على الكتاب المقدس، ومنها جذر علمى، قائم على الداروينية الاجتماعية التى تقول بالبقاء للأصلح، ومنها ما هو شوڤينى وإمپريالى، يسعى وراء المصالح ويتلمس لها المبررات هنا وهناك، ولنبدأ بالجذر الأقدم . . . الكتاب المقدس وآثاره على أوروپا الغربية وأمريكا، وأهم الشخصيات التى لعبت أدوارًا مؤثرة فى إنتاج كتاب هيرتزل «الدولة اليهودية» وفى قيام دولة إسرائيل اليهودية.

العهد القديم

كما يعرف أكثرنا، يؤمن بالعهد القديم من الكتاب المقدس اليهود والمسيحيون، ويذكر الكتاب المقدس أن إسرائيل هو شعب الله المختار، وأن الله وعد إبراهيم بالأرض المقدسة، ويرث إبراهيم ابنه إسحاق، وليس ابنه الأكبر إسماعيل، فهو **ابن الجارية**، وفى ذلك إيحاء طبقى وعنصرى واضح، ويرث إسحاق يعقوب، وليس عيسو ابنه الأكبر، ويرث أولاد يعقوب (إسرائيل) الأرض المقدسة، وهم **شعب الله**

المختار(*)، وبقية الناس هم الأغيار، الذين تحكى روايات الكتاب المقدس الأوامر الإلهية المتكررة عشرات المرات بإبادة كل أولئك الأغيار: رجال ونساء وأطفال وشيوخ، وإبادة وإحراق قراهم بالكامل، وفى بعض الأحيان قتل حتى حيواناتهم(**).

الأمر الذى أكده حاخامات إسرائيل فى غزوها للبنان عام ٢٠٠٦م، عندما صرحوا بأن من حق جيش إسرائيل قتل المدنيين أطفالاً ونساءً، وأن الفارق بين روح اليهودى وروح الأغيار أكبر من الفارق بين روح الأغيار وروح الحيوانات، فإسرائيل شعب الله المختار.

كذلك ينمى التأويل الانتقائى لقصة نبى الله نوح فكرة العنصرية لدى بعض اليهود والمسيحيين، ونصها كما جاء فى الكتاب المقدس تحت عنوان لعن **كنعان ومباركة سام**:

واشتغل نوح بالفلاحة وغرس كرما، وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خيمته، فشاهد حام أبو الكنعانيين عرى أبيه، فخرج وأخبر أخويه اللذين كانا خارجا. فأخذ سام ويافث رداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا القهقرى إلى داخل الخيمة، وسترا عرى أبيهما من غير أن يستديرا بوجهيهما نحوه فيبصرا عريه. وعندما أفاق نوح من سكره وعلم ما فعله به ابنه الصغير قال: «ليكن كنعان ملعونا، وليكن **عبد العبيد لإخوته**». ثم قال: «تبارك الله إله سام. وليكن **كنعان عبدا له**. ليوسع الله ليافث فيسكن فى خيام سام. وليكن **كنعان عبدا له**» [سفر التكوين، ٩ : ٢٠ ـ ٢٧].

وربما يتساءل البعض لماذا لعن كنعان وليس أباه؟ وهل تلك الحادثة تستلزم مثل هذا اللعن وأن يصبح كنعان (أى العرب فيما بعد، والآخر عمومًا، رغم أن العرب ـ طبقًا للكتاب المقدس ـ أبناء سام أيضًا) عبدًا لسام، أى لإسرائيل [ثم للكنيسة بعد ذلك] فى الضمير المسيحى واليهودى، والإعلام الغربى؟

(*) برغم أنه طبقًا للكتاب المقدس، جاء أولاد يعقوب، أو بنو إسرائيل، من أربع زوجات ليعقوب، اثنتان منهما جاريتان.

(**) «فإذا أسقطها الربُّ إلهكم فى أيديكم، فاقتلوا جميع ذكورها بحد السيف» [التثنية، ٢٠ : ١٣].

«أما مدن الشعوب التى يهبها الرب إلهكم لكم ميراثًا فلا تستبقوا فيها نسمة حية» [التثنية، ٢٠ : ١٦].

«ودمروا المدينة واقضوا بحد السيف على كل من فيها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ حتى البقر والغنم والحمير» [يشوع، ٦ : ٢١].

سيطرت فكرة شعب الله المختار فى مقابل الأغيار، وأرض الميعاد، على الثقافة اليهودية، وصارت أحد أعمدتها.

وبعد رسالة المسيح، **اعتبرت الكنيسة الكاثوليكية أنها أصبحت شعب الله المختار**، بعد أن رفض اليهود المسيح، ومن هنا تجسدت النظرة العنصرية فى أوروپا الكاثوليكية ضد الآخر، أو الأغيار، الذين هم كل من خارج الكنيسة الكاثوليكية، حتى لو كانوا مسيحيين، ومن هنا نشأ اضطهاد اليهود فى أوروپا على يد الكنيسة، ونشأ اضطهاد أقباط مصر، بل واضطهاد طوائف مسيحية أوروپية خالفت الكنيسة، ولم يقف الأمر على الاضطهاد، بل تعداه إلى مختلف أنواع التعذيب والقتل على الخازوق وحرقًا، كما تزخر بذلك المؤلفات المسيحية.

وكما أساء بعض من اليهود تأويل فكرة شعب الله المختار فى مقابل الأغيار، أساء بعض المسيحيين فى الغرب تأويل فكرة شعب الله المختار، وأضافوا إليها مفهوم قصة المرأة الكنعانية كما جاءت فى العهد الجديد، لتبرير عنصريتهم:

إيمان المرأة الكنعانية

«ثم غادر يسوع تلك المنطقة، وذهب إلى نواحى صور وصيدا. فإذا امرأة كنعانية من تلك النواحى، قد تقدمت إليه صارخة: «ارحمنى يا سيد، يا ابن داود! ابنتى معذبة جدًا، يسكنها شيطان». لكنه لم يجبها بكلمة. فجاء تلاميذه يلحون عليه قائلين: «اقض لها حاجتها. فهى تصرخ فى إثرنا!» فأجاب: «ما أرسلت إلا إلى الخراف الضالة، إلى بيت إسرائيل» ولكن المرأة اقتربت إليه، وسجدت له، وقالت: «أعنّى يا سيد!» فأجاب: «ليس من الصواب أن يؤخذ خبز البنين ويطرح لجراء الكلاب!» فقالت «صحيح يا سيد؛ ولكن جراء الكلاب تأكل من الفتات الذى يسقط من موائد أصحابها!» فأجابها يسوع: «أيتها المرأة، عظيم إيمانك! فليكن لك ما تطلبين!» فشفيت ابنتها من تلك الساعة!» [إنجيل متى، ١٥ : ٢١ : ٢٨]، [إنجيل مرقس، ٧ : ٢٤ : ٣٠].

فها هو الرب يسعى وراء بنى إسرائيل ، ويرفض أن يسع المرأة الكنعانية برحمته ، إلا بعد تشبيهها بالكلاب ، وبعد إصرارها على الأكل من فتات مائدة الشعب المختار كما تأكل الكلاب من فتات المائدة(*) ، فما أوسع الفارق بين من يسعى الله وراءه ومن يسعى وراء الله .

تزايد استبداد الكنيسة الكاثوليكية فى مختلف مجالات الحياة : دين ، وثقافة ، وعلم ، وتجارة ، وسياسة ، وحتى الجنس والشذوذ .

ومع زيادة الاستبداد ، زاد الفساد ، وعن ذلك قال اللورد الإنجليزى إكنر مقولته الشهيرة :

« السلطة مفسدة ، والسلطة المطلقة فساد مطلق » .

ظهر مارتن لوثر فى مطلع القرن السادس عشر ، فى محاولة لإصلاح الكنيسة الكاثوليكية ، وإنهاء استبدادها وفسادها وتعاليمها التى رأى أنها ليست من الكتاب المقدس ، ولكن انتهى الأمر بأن حرمه البابا وحاكمه ، فانشق عن الكنيسة وأعلن أن البابا عدو المسيح ، وظهرت البروتستانتية ، والتى عماد اختلافها عن الكاثوليكية فى رجوع الأولى للكتاب المقدس كالمصدر الرئيسى والأوحد للمسيحية ، وسمحت لكل المسيحيين باقتنائه وتفسيره بعد أن كانت الكنيسة حتى القرن السابع عشر تحرم ذلك ، وتعاقب المسيحى الذى ليس من رجالها إذا وجدت لديه نسخة من الكتاب المقدس .

نشبت الحروب الدينية فى أوروبا بين الكاثوليك والبروتستانت ، واستمرت واستمر اضطهاد كل طائفة للأخرى حتى منتصف القرن التاسع عشر ، حتى أن رسالة التسامح لجون لوك ، أحد أهم فلاسفة إنجلترا وأوروبا ، وأكثرهم تسامحًا ، والذى تأثر به آباء الثورة الأمريكية ووضعوا دستورهم على الكثير من أفكاره ، استثنت رسالته فى التسامح (فى نهاية القرن السابع عشر) الكاثوليك واليهود والمسلمين من الفئات التى يجب أن يشملها التسامح ، أى أن فيلسوف التسامح فى

(*) فى البداية ، شبه مارتن لوثر المسيحيين بالكلاب الذين عليهم أن يأكلوا من فتات موائد اليهود ، ثم عاد بعد ذلك يهاجم اليهود ، وطالب بإحراق كتبهم وإغلاق معابدهم ، بل طردهم من ألمانيا .

ذروة عصر التنوير الإنجليزى والأوروپى، كان يتكلم عن التسامح بين الطوائف الپروتستانتية(*).

(*) سوف نقتبس هنا فقرات لكتاب يهود ومسيحيين عن معاملة المسلمين لليهود والمسيحيين :

١ـ المفكر والناشط اليهودى الإسرائيلى، وعضو الكنيست الإسرائيلى لدورتين، يورى أڤنيرى، كتب تعقيبًا على محاضرة البابا الحالى بندكت عن الإسلام، وأن الإسلام انتشر بالسيف، فقال :

فى خطابه الذي ألقاه فى جامعة ألمانية، أراد البابا أن يثبت أن هناك فرقًا جوهريا بين المسيحية والإسلام : فبينما ترتكز المسيحية على المنطق، فإن الإسلام ينكره. بينما يرى المسيحيون منطقا فى أعمال الله، ينكر المسلمون أى منطق فى أعمال الله.

بصفتي ملحدًا يهوديًا، أنا لا أنوى أن أجر نفسى فى هذا النقاش. غير أنى غير قادر على التزام الصمت حيال مقطع واحد من خطابه، متعلق بى كإسرائيلى يعيش فى خط الجبهة فى «حرب الحضارات».

لكى يثبت انعدام وجود المنطق فى الإسلام، يدعى البابا أن النبى محمدًا قد أمر أتباعه بنشر دينه بقوة السيف، وهذا أمر غير منطقى، على حد تعبير البابا؛ لأن الروح هى مصدر الإيمان وليس الجسد، وكيف يمكن للسيف أن يؤثر على الروح؟

يسوع المسيح قال : «تعرفونهم من ثمارهم». علينا أن ننظر إلى تعامل الإسلام مع الديانات الأخرى حسب اختبار بسيط : كيف تصرفوا خلال أكثر من ألف سنة، بينما كانت القوة بين يديهم، وكان بمستطاعهم «نشر دينهم بقوة السيف». هم لم يفعلوا ذلك. لقد سيطر المسلمون فى اليونان طيلة مئات السنين. هل اعتنق اليونانيون الإسلام؟ هل حاول أى شخص إدخالهم فى الإسلام؟ على العكس، لقد شغل اليونانيون وظائف كبيرة فى الحكم العثمانى. كما أن شعوب أوروپا المختلفة، مثل البلغاريين، والصرب، والرومانيين، والهنغاريين، الذين عاشوا فترات طويلة تحت حكم الأتراك، قد تشبثوا بدينهم المسيحى. إن أحدا لم يجبرهم على اعتناق الدين الإسلامى، وظلوا مسيحيين متدينين.

لقد أسلم الألبان وكذلك البوسنيون، ولكن أحدا منهم لا يدعى بأنهم قد أكرهوا على ذلك.

فى عام ١٠٩٩م، احتل الصليبيون القدس وذبحوا سكانها المسلمين واليهود من دون تمييز، وكانت هذه الأمور تنفذ باسم يسوع طاهر النفس. فى تلك الفترة، وبعد ٤٠٠ سنة من احتلال المسلمين للبلاد، كان معظم سكان البلاد ما زالوا من المسيحيين. طيلة كل تلك الفترة لم تجر أية محاولة لفرض دين محمد على السكان.

لم تُعرف أية محاولة لفرض دين محمد على اليهود. لقد تمتع يهود إسپانيا، تحت حكم المسلمين، بازدهار لم يسبق له مثيل فى حياة اليهود حتى أيامنا هذه تقريبا. شعراء مثل يهودا هليفى كانوا يكتبون باللغة العربية، كذلك الحاخام موشيه بن ميمون.

كان اليهود فى الأندلس المسلمة وزراء، وشعراء وعلماء. لقد عمل فى طليطلة المسلمة مسلمون، ويهود ومسيحيون، معا على ترجمة كتب الفلسفة والعلوم اليونانية القديمة. لقد كان ذلك «عصراً ذهبيًا» بالفعل.

كيف كان لهذا أن يحدث كله، لو كان النبى محمد قد أمر أتباعه «بنشر الإيمان بقوة السيف»؟

ولكن المهم هو ما حدث لاحقًا، حين استعاد الكاثوليكيون إسپانيا من أيدى المسلمين، فقد بسطوا فيها حكمًا من الإرهاب الدينى. لقد وقف اليهود والمسلمون أمام خيار قاس : اعتناق المسيحية أو الموت أو الهرب. وإلى أين هرب مئات آلاف اليهود، الذين رفضوا تغيير دينهم؟ لقد استقبل معظمهم على الرحب والسعة =

= فى الدول الإسلامية. لقد استوطن «يهود الأندلس» من المغرب فى الغرب وحتى العراق فى الشرق، من بلغاريا (تحت حكم الأتراك آنذاك) فى الشمال وحتى السودان فى الجنوب. لم تتم ملاحقتهم فى أى مكان. لم يواجهوا هناك أى شىء يضاهى تعذيب محاكم التفتيش، ولهيب المحارق، والمجازر والطرد الذى ساد فى معظم الدول المسيحية حتى حدوث الكارثة.

لماذا؟ لأن محمداً قد منع بشكل واضح ملاحقة «أهل الكتاب». لقد تم تخصيص مكانة خاصة فى المجتمع الإسلامى لليهود وللمسيحيين. لم تكن هذه المكانة مساوية تمامًا، ولكنها كادت تكون كذلك.

كل يهودى مستقيم، يعرف تاريخ شعبه، لا يمكنه إلا أن يشعر بالعرفان تجاه الإسلام، الذى حمى اليهود طيلة خمسين جيلاً، فى الوقت الذى كان العالم المسيحى فيه يلاحقهم، وحاول فى العديد من المرات إجبارهم على تغيير دينهم «بالسيف».

قصة «نشر دين محمد بالسيف» هى أسطورة موجهة، جزء من الأساطير التى نشأت فى أوروبا أيام الحروب الكبيرة ضد المسلمين - إعادة احتلال إسبانيا من قبل المسيحيين، الحروب الصليبية وملاحقة الأتراك، الذين كادوا يحتلون ڤيينا. أشك فى أن البابا الألمانى يؤمن هو أيضًا بهذه الأساطير إيمانًا تامًا. هذا يعنى أن زعيم العالم المسيحى، وهو لاهوتى مسيحى هام بحد ذاته، لم يبذل جهداً فى التعمق فى تاريخ أديان أخرى.

لماذا صرح بهذه التصريحات علنيا؟ ولماذا الآن بالذات؟

لا مناص من النظر إلى الأمور على خلفية الحملة الصليبية الجديدة التى يخوضها بوش ومؤيدوه الإيڤانجيليكون، وحديثه عن «الفاشية الإسلامية» و«الحرب العالمية ضد الإرهاب»، بينما يتم توجيه كلمة «الإرهاب» إلى المسلمين. إن هذا الأمر بالنسبة لمن يوجه بوش هو محاولة ساخرة لتبرير الاستيلاء على مصادر النفط. هذه ليس المرة الأولى التى تلبس فيها المصالح الاقتصادية الجرداء قناعًا دينيًا، وهذه ليست المرة الأولى التى تتحول فيه حملة نهب إلى حملة صليبية.

يندمج خطاب البابا بشكل جيد فى هذه المساعى. ولا أحد يعرف ما هى النتائج الممكنة.

٢- قالت كارين آرمسترونج: فى كتابها الأصولية فى اليهودية والمسيحية والإسلام:

وفى عام ١٤٩٩م، خير المسلمون المقيمون فى إسپانيا بين اعتناق المسيحية وبين الترحيل من البلاد، فأصبحت أوروپا خالية من المسلمين وظلت كذلك قرونًا معدودة. أما الحدث الثانى الذى وقع فى تلك السنة الحافلة فكان فى يوم ٣١ مارس، وهو توقيع فرديناند وإيزابيلا (ملك وملكة إسپانيا، الكاثوليكيان جدًا) مرسوم الطرد الذى كان يرمى إلى إخلاء أوروپا من اليهود، وقد خُيروا أيضًا بين التعميد، أى اعتناق النصرانية وبين الترحيل. وكان الكثيرون من اليهود قد عز عليهم فراق وطنهم فى الأندلس (وهو اسم المملكة الإسلامية القديمة) إلى الحد الذى جعلهم يعتنقون المسيحية ويظلون فى إسپانيا، ولكن عدداً يبلغ نحو ٨٠٠٠٠ يهودى عبروا الحدود إلى البرتغال، وفر قرابة ٥٠٠٠٠ إلى الإمبراطورية العثمانية الإسلامية الجديدة حيث قوبلوا بالترحاب الحار [ص ١٨، ١٩].

كان قيام الإسپان بإعادة فتح الأراضى الإسلامية القديمة فى الأندلس بمنزلة كارثة لليهود فى شبه جزيرة أيبريا. أما فى الدولة الإسلامية فقد كانت الأديان الثلاثة - أى اليهودية والمسيحية والإسلام - تعيش معًا فى تناغم نسبى على مدى ما يربو على ستمائة عام، وكان اليهود بصفة خاصة يتمتعون بنهضة ثقافية وروحية فى إسپانيا، ولم يتعرضوا لما تعرض له اليهود فى سائر أوروپا من ألوان الاضطهاد [ص٢٤].

فالواقع أن طرد اليهود من إسپانيا فى عام ١٤٩٢م كان ختاما للقرن الذى شهد حالات الطرد المتعاقبة لليهود من منطقة أوروپية بعد أخرى، إذ شهد ترحيلهم أولاً من ڤيينا ولينز فى عام (١٤٢١ م)، ومن كولونيا فى عام (١٤٢٤م) ومن أوغسبرج فى عام (١٤٣٩م)، ومن باڤاريا فى عام (١٤٤٢م)، ومن المدن التابعة =

جاءت البروتستانتية بأفكار هامة كثيرة، منها أن **البروتستانت هم الآن شعب الله المختار**، وبإعادة الاحترام والتقديس لبنى إسرائيل، **والأكثر أهمية، والأكثر خطورة على الشرق الأوسط وعلى العالم، فكرة ضرورة رجوع إسرائيل لأرضه، حتى يهبط المسيح ثانيًا، ويخلص العالم المسيحى للأبد.**

ترعرعت هذه الفكرة الأخيرة فى إنجلترا ثم أمريكا، وأصبح معظم البروتستانت يؤمنون بها، وخصوصًا أولئك الذين يعتبرون الكتاب المقدس وحيًا معصومًا، ويشترطون تفسيره حرفيًا، فقد أصبحوا يسعون لتلك النهاية، سعيهم وراء لقائهم بالمسيح، وخلاصهم الأبدى، ويعتبرون ما يلاقونه فى سبيل ذلك من صعوبات وعداوات، وتبادل الظلم، بل وحتى الموت وتبادل القتل، بمنزلة تضحيات فى سبيل المسيح. ومن هنا، نشأت الصهيونية المسيحية، قبل الصهيونية اليهودية، فلم يكن اليهود فى ذلك الوقت (القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر) يفكرون فى العودة إلى جبل صهيون.

تسابقت الصهيونية المسيحية فى إنجلترا وأمريكا فى الدعوة لرجوع إسرائيل، وظهرت فى ذلك السباق شخصيات سياسية ودينية وأدبية مؤثرة منذ القرن السابع

= للتاج فى موراڤيا فى عام (١٤٥٤م). ثم طرد اليهود من بيروجيا فى عام (١٤٨٥م)، ومن ڤيشنزا (١٤٨٦م) وبارما (١٤٨٨م) وميلانو ولوكا (١٤٨٩م) وتوسكانيا (١٤٩٤م)، وانتقل اليهود تدريجيًا إلى الشرق، وشرعوا يقيمون ما ظنوه موقعًا حصينًا لهم فى پولندا، وهكذا أصبح المنفى، فيما يبدو، عنصرًا دائمًا محتومًا من عناصر الحياة اليهودية.

كان ذلك، بالتأكيد، ما رسخ فى أذهان اليهود الإسپان الذين لجؤوا بعد طردهم إلى ولايات الإمبراطورية العثمانية فى شمال إفريقيا وشبه جزيرة البلقان، فقد اعتادوا العيش فى المجتمع الإسلامى [ص٢٦].

أما فى العالم الإسلامى فلم يكن اليهود يتعرضون لمثل هذه القيود، فكان المسلمون يعتبرونهم مثل النصارى من الذميين (وأهل الذمة هم الأقلية التى تتمتع بالحماية مدنيًا وعسكريًا ما داموا يحترمون قانون الدولة الإسلامية وسيادتها) ولم يتعرض اليهود فى ظل الإسلام للاضطهاد، إذ لم تكن هناك تقاليد عداء للسامية، وعلى الرغم من أن الذميين كانوا يعتبرون مواطنين من الدرجة الثانية، فقد كانوا يتمتعون بالحرية الدينية الكاملة، وكان لهم أن يديروا شئونهم الخاصة وفقًا لشرائعهم، وكانوا أقدر من يهود أوروپا على المشاركة فى التيار الرئيسى للثقافة والتجارة [ص ٥٤].

٣ـ قال ول ديورانت فى موسوعة قصة الحضارة:

ولقى المنفيون «اليهود» من إسپانيا استقبالاً إنسانيًا فى القاهرة تحت حكم سلاطين المماليك والعثمانيين [جـ٢٦ ص١٥٩].

عشر، وحتى يومنا هذا، سنذكر عدداً قليلاً منها على سبيل المثال، فى ثنايا التعرف على الجذور الصهيونية فى كل من بريطانيا وأمريكا:

* الجذور البريطانية للصهيونية المسيحية

كانت بريطانيا كاثوليكية مثل كل أوروپا، وعندما ظهر مارتن لوثر وانشق على البابا، هاجمه هنرى الثامن ملك بريطانيا اللعوب، فى كتاب لاهوتى من الدرجة الأولى سماه «قضية المقدسات السبعة ضد مارتن لوثر» (*) ولكن عندما رفض البابا اعتبار زواج هنرى من كاترين (بنت فرديناند وإيزابيلا ملكى إسپانيا «الكاثوليكيين جداً») باطلاً، ليتيح له أن يتزوج من عشيقته آن پولين، خرج الملك اللعوب من الكاثوليكية وتحول إلى الپروتستانتية، ولكن على طريقته الاستبدادية، فأراد أن يكون بابا الپروتستانت. تزوج هنرى عدة مرات، وأنجب أولاداً من زوجات وعشيقات كاثوليكيات وپروتستانت، فإذا جاء الابن أو الابنة من أم كاثوليكية، اعتنقها واضطهد الپروتستانت، والعكس بالعكس. وفى ظل ذلك القمع والاضطهاد الدينى المتبادل، الذى وصل إلى حد القتل، بل وإخراج الموتى من قبورهم لوضعهم على الخازوق وإحراقهم، ظهرت طائفة الپيوريتانز، وهى طائفة پروتستانتية متشددة انشقت على كنيسة إنجلترا الپروتستانتية (الإنجليكانية)، وهاجر الكثير منها إلى هولندا ثم إلى القارة الجديدة، أمريكا.

* السير هنرى فينش

هو محام بارز، وعضو مجلس العموم الإنجليزى، وصاحب أول مشروع لإعادة اليهود لجبل صهيون، وذلك فى رسالة «دعوة اليهود وكل أمم الأرض إلى الإيمان بالمسيح» وكان ذلك عام ١٦٢١م(**) .

* قانون ١٦٤٤

اشترط ذلك القانون على المرشحين للوزارة فى إنجلترا اجتياز اختبار فى قراءة نصوص العهد القديم باللغة العبرية واليونانية(***) .

(*) رد عليه مارتن لوثر، ملقبًا إياه بالملك الحمار الحقير، الذى لا يعرف شيئًا.

(**) الصهيونيون المسيحيون، على الطريق إلى هرمجدون، ستيفن سايزر ـ الفريق العربى للحوار الإسلامى المسيحى، ص٢٦، وانظر أيضًا الكتاب المقدس والسيف ـ باربرا توخمان جـ١ ص ١٥١ ـ مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤م.

(***) المرجع السابق جـ١ ص ١٥٢ .

*** آل كارترايت**

فى عام ١٦٤٩م وفى ذروة الحكم الپيوريتانى لإنجلترا، طلب آل كارترايت ـ وهما أخوان من الإنجليز الپيوريتانز يعيشان فى أمستردام ـ من الحكومة الإنجليزية أن تصبح الأمة الإنجليزية والهولندية أولى وأكثر الدول استعداداً لنقل أولاد وبنات إسرائيل فى مراكبها للأرض الموعودة لأجدادهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ليتملكوا ميراثهم إلى الأبد(*).

وتعلق باربرا توخمان ـ مؤلفة الكتاب المقدس والسيف ـ على تلك الفترة قائلة:

جاء الغزو العبرى للفكر الإنجليزى مع الپيوريتانية من خلال مطالعة العهد القديم ـ [جـ ١، ص ١٤٠]. . . ونما ولع الپيوريتانز بالعهد القديم بسبب تجربتهم فى اضطهاد الكنيسة المؤسسة (Established Church) لهم، فقد كانت تسوقهم إلى المشنقة بسبب رفضهم الاعتراف بسلطة خلاف سلطة الكتاب المقدس ـ [جـ ١، ص ١٤١]، وكان من شعاراتهم «ملعون من يقوم بعمل الرب متهاونًا، وملعون من حظر على سيفه الدم» ـ [سفر إرميا، الإصحاح ٤٨ : ١٠]، «أنت فأس معركتى وآلة حربى، بك أمزق الأمم إربًا وأحطم ممالك. بك أجعل الفرس وفارسها أشلاء، وأهشم المركبة وراكبها. بك أحطم الرجل والمرأة والشيخ والفتى والشاب والعذراء، بك أسحق الراعى وقطيعه، والحارث وفدانه والحكام والولاة» [سفر إرميا، الإصحاح ٥١، ١٩ : ٢٣].

وجاء حكم الپيوريتانز:

*** أوليڤر كرومويل**

قاد ثورة الپيوريتانز فى الحرب الأهلية ضد الملك تشارلز الأول والتى استمرت من ١٦٤٢إلى ١٦٥١م، وحين خطط للمعركة، استشار نصوص الكتاب المقدس، وكانت صيحة الحرب: الله يا رب الجيوش [كثيراً ما أطلق العهد القديم هذا اللقب على الله]، ويتحدث كرومويل عن نفسه كرجل دعى لعمل عظيم فى إسرائيل. . . ويتحدث عن المجلس اليهودى الأعلى فى إنجلترا على أنه «إسرائيلنا البريطانية» و«صهيوننا

(*) المرجع السابق، جـ ١، ص١٣٧.

الإنجليزى» وأمر جنوده بالزحف فى صمت كما زحف جدعون على المديانيين [فى قتال بنى إسرائيل ضد المديانيين]، وأطلق جنوده على الملكيين عبدة البعل، وكانوا يهتفون فى قتالهم: اهلكى يا بابل الكتاب المقدس والسيف. [ص ١٥٥، ١٥٦].

حكم أوليڤر كرومويل الپيوريتانى إنجلترا، وقد سمح لليهود بالعودة إلى إنجلترا بعد أن طردوا منها لمدة ثلاثة قرون [Time Line History of England, Barnes &Noble, pages:250-254].

وتعلق باربرا توخمان على ذلك قائلة:

«كان رجال الدين، ومن يريد عودة اليهود لإنجلترا، يقولون بأن الناس الطيبين فى إنجلترا كانوا يؤمنون بعودة المسيح ويصلون من أجلها أكثر من أى شعب آخر، ويؤمنون بأنه يجب السماح لليهود بالعودة إلى إنجلترا [لتحقيق الشتات فى كل العالم قبل العودة لإسرائيل] لأجل تحقيق ظهور المسيح أو التحول [تحول اليهود للمسيحية]، وأنه يجب على إنجلترا أن تكفر عن ذنوبها تجاه اليهود أقارب المسيحيين بالدم، وإن لم يكن بالروح والإيمان، وينحدرون من نفس الأب إبراهام» [ص١٦٥] .

ويقول اللورد مورلى فى قصة حياة كرومويل: إنها كانت محاولة لتأسيس مجتمع مدنى بناءً على التعاليم الحرفية للكتاب المقدس. وفى بداية خطابه الافتتاحى للبرلمان، كان مأخوذاً برؤياه لنفسه على أنه نبى الله إيليا، يعيد شعب الله إليه، وقال للأعضاء: أنتم مدعوون من قبل الرب كما كان يهوذا مدعوّاً، أنتم على عتبة الوعود والنبوءات، ثم تلا المزمور الثامن والستين: «يقول السيد: سأرجع أعداءكم من باشان، سأرجعهم من أعماق البحر، فتغمسون أرجلكم فى دمهم، وتأخذ ألسنة الكلاب نصيبها من الأعداء»، ويستمر مستعينًا بنصوص الكتاب المقدس، ويؤكد لسامعيه أن النصر الموعود فى المزمور الثامن والستين لشعب الله القديم سيتحقق على يد الكومونولث [الشعب الإنجليزى تحت قيادته]، شعب الله على الأرض [الكتاب المقدس والسيف، ص ١٦٢].

وكان كرومويل يبحث أيضًا عن أموال اليهود.

*** چون نيلسون داربى**

أسس كنائس الإخوان فى ألمانيا وسويسرا وفرنسا والولايات المتحدة، كذلك أسس عقيدة التدبيرية، ومفادها أن الله يدبر شئون الكون وفق خطة إلهية تهيئ الظروف المناسبة للمجيء الثانى للمسيح - بعد رجوع شعب إسرائيل لأرضه - ليحكم الألفية السعيدة. قام بعدة زيارات للولايات المتحدة. ويقول عنه ستيفن سايزر فى كتابه «الصهيونيون المسيحيون»، إنه الشخصية الأكثر تأثيرًا فى تطوير الصهيونية المسيحية، وإنه قام بعدة رحلات لأمريكا، ليشرح أفكاره عن التدبيرية، ونبوءات الكتاب المقدس، وإنه أثر على القادة الإيڤانجيليكيين أمثال چيمس بروكسى، ودوايت مودى - الملقب بأبى الأصولية الأمريكية -، ووليام بلاكستون، وسايروس سكوفيلد، وأولئك حملوا لواء الصهيونية المسيحية فى أمريكا من منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين.

*** اللورد شافتسبيرى (١٨٠١ - ١٨٥٥م)**

اقتنع شافتسبيرى بأن عودة اليهود إلى فلسطين ليست فقط تحقيقًا لنبوءات الكتاب المقدس ولكنها أيضًا تلاقت مع المصالح الإستراتيچية للسياسة الخارجية البريطانية.

كتب شافتسبيرى عام ١٨٣٩م مقالة لمجلة « Quarterly Review »عنوانها «الدولة وعودة اليهود»، دافع فيها عن إقامة وطن قومى لليهود عاصمته القدس، على أن يبقى تحت الحكم التركى وبحماية بريطانية، وتكشف الفقرة التالية عن المشاعر المتناقضة، ومع ذلك المتوحدة، فى وجوب إعادة اليهود لأرض فلسطين:

«يجب تشجيع اليهود على العودة بأعداد أكبر إلى يهوذا والجليل. . . ومع أنهم متصلبو الرأى، وقلوبهم مظلمة، ومنغمسون فى الانحطاط الأخلاقى، وقساة القلوب، وجاهلون بالنسبة للإنجيل، إلا أنهم ليسوا مستحقين للأرض فحسب، لكنهم عامل حيوى لرجاء المسيحية فى الخلاص» [الصهيونيون المسيحيون، ص ٣٣].

برغم نظرته الدونية لليهود، فهم فى نظره الأداة أو الوسيلة الضرورية لعودة المسيح، بعودتهم إلى صهيون. ويشبهه فى هذه النظرة الدونية الكثير من المسيحيين

الغربيين، حتى تجد القس الإيڤانجيليكى الصهيونى القح چون هاج(*) فى كتابه «العد التنازلى للقدس» يطالب المسيحيين فى الولايات المتحدة بالكف عن كراهية اليهود، كذلك كشفت تسجيلات البيت الأبيض عن ازدراء كل من الرئيس الأمريكى الأسبق نيكسون والداعية الأمريكى المتقاعد الأشهر بيلى جراهام لليهود، وما قد يفعلونه بأمريكا.

تزوج وزير الخارجية البريطانى، اللورد پالمرستون بحماة شافتسبيرى، الذى أقنعه برؤياه عن ضرورة عودة اليهود لأرض فلسطين، لتحقيق نبوءات الكتاب المقدس والإعداد للمجىء الثانى للمسيح، وعندما اقتنع پالمرستون، قال شافتسبيرى: لقد اختار الله پالمرستون ليكون أداة تعمل لصالح شعب الله القديم. وبعد أسبوعين من لقائهما، نشرت جريدة «لندن تايمز - London Times» فى ١٧/ ٨/ ١٨٤٠م مقالة تدعو لزرع الشعب اليهودى فى أرض فلسطين، طبقًا للعهد الإلهى بإعطاء تلك الأرض لنسل إبراهام.

وتقول المؤرخة باربرا توخمان:

لقد كانت دوافعه (شافتسبيرى) دينية، وليست سياسية مثل پالمرستون. لقد كان شافتسبيرى يمثل الكتاب المقدس، وپالمرستون يمثل السيف.

وتستأنف توخمان قائلة:

بالنسبة له [لشافتسبيرى] ولكل أعضاء مدرسة «إسرائيل من أجل تحقيق البشارة [أى المجىء الثانى للمسيح]» فإن اليهود ببساطة هم الأداة التى من خلالها يمكن أن تتحقق بشارة الكتاب المقدس.

ويقول شافتسبيرى لكاتب مذكراته: الإيمان بعودة المسيح كان دائمًا مبدأ محركًا فى

(*) الدكتور چون هاج مؤسس كنيسة «Corner Stone» فى سان أنطونيو - تكساس، ويتبعها ١٨٠٠٠ عضو ناشط. تبث برامجه الدينية السياسية ١٦٠ قناة تليفزيونية، و٥٠ محطة راديو، وتراه ٩٩ مليون أسرة، وهو من أقرب حلفاء إسرائيل، وأصدقاء نتنياهو. ونقرأ فى كتابه الشهير «العد التنازلى للقدس» خطوات إنتاج القنبلة النووية، وخريطة مفصلة للمواقع الإيرانية للطاقة النووية، وأحاديث مع «مصادره» الإسرائيلية والأمريكية الخاصة... !

حياتى ، فأنا أرى كلها شيئًا يحدث فى العالم تمهيدًا لهذا الحدث العظيم . كان شافتسبيرى يصرح قائلاً «أنا إيڤانجيليكى الإيڤانجيليكيين» .

وتعلق توخمان قائلة :

لقد أصبح فى أيامنا هذه من المستحيل ، تقريبًا ، أن نقدر بإنصاف دور الدين فى التاريخ السياسى والاجتماعى والاقتصادى . نحن لا نستطيع أن نحكم على دور الدين لأنا نفتقده . إن الدين ليس جزءًا من حياتنا ، على الأقل بالمقارنة بدور الدين فى الحياة فى القرن التاسع عشر ، **ولكن القرن العشرين هو وليد القرن التاسع عشر ، وإذا كانت إنجلترا فى القرن العشرين تتولى إعادة إسرائيل إلى فلسطين ، فذلك لأن المحرك الرئيسى للقرن التاسع عشر ، فى مجمله ، هو الدين .**

*** دزرائيلى ، رئيس وزراء بريطانيا اليهودى**

أظهر دزرائيلى التخلى عن يهوديته ، وأنه لا يهتم بغير الإمبراطورية ، ولكن من أقواله التى ذكرتها باربرا توخمان :

«كان يسأل أعضاء المجلس فى مناقشة حول تحرير اليهود : أين مسيحيتكم إن لم تؤمنوا بيهوديتهم؟ عند مذبح كل كنيسة تجد الشريعة اليهودية . كل المسيحيين الأوائل كانوا يهودًا ، كل من بشر بالمسيحية ونشرها كان يهوديًا . إذا لم تنسوا ما تدينون به لذلك الشعب ، فعليكم كمسيحيين أن تكونوا على أتم استعداد لانتهاز أول فرصة للاستجابة لطلبات اليهود» .

وتستمر توخمان قائلة عنه :

أظهر الفخر بجنسه وتراثه اليهودى ، وكرر ذلك فى رواياته ، وفى مقدمات الطبعات الأخيرة لها ، وكتب فى السيرة الذاتية السياسية للورد بينتينك :

«لقد اكتشف العالم فى ذلك الوقت أنه من المستحيل تدمير اليهود ، وأن محاولة صد القوانين الطبيعية الثابتة ـ التى تقرر أن الجنس السامى لن يدمر أبدًا ، ولن يستعبد بجنس أقل منه مرتبة ـ ستكون محاولة بدون جدوى» .

لقد كان يؤمن أن قوة إنجلترا وعزمها مشتق من القوانين الأخلاقية للعبرانيين التى

انتقلت إلى الإنجليز عن طريق الكتاب المقدس، وكان يقول إن إنجلترا رغم نظامها اللاهوتى الناقص والضئيل ظلت دائمًا تتذكر صهيون.

كذلك قالت توخمان عنه: «شعر بإيمان قديم الأزل تجاه فلسطين لا يمكن تفسيره. لقد كتب بعاطفة جياشة فى «الروى» عن إحياء مملكة إسرائيل، ولكنه لم يأخذ خطوة سياسية واحدة تجاه تحقيقها. لقد كان مهتمًا بديون العالم تجاه اليهود وليس مستقبل اليهود فى العالم»(*).

وقبل أن نختم الجذور البريطانية للصهيونية المسيحية بوعد بلفور، يجدر بنا العبور بسرعة على:

التنوير والليبرالية واليهود

والبقاء للأصلح

عانى اليهود من الكنيسة الكاثوليكية فى أوروپا، وتعصب الكاثوليك ضدهم، حتى طردوا من إنجلترا ومن فرنسا ومن ألمانيا، وقبل ذلك من إسپانيا، ولعدة قرون. ومع ظهور مارتن لوثر، خفت قبضة الكنيسة الكاثوليكية على أوروپا، وبمرور الوقت انقسمت أوروپا بين الطائفتين، وأثرت دعوة لوثر بالرجوع للكتاب المقدس وحده فى أن بدأت أوروپا البروتستانتية تقرأ فى العهد القديم عن أنبياء بنى إسرائيل وأبطالهم، وممارساتهم فى قتل وإبادة الأغيار طبقًا للأوامر الإلهية.

وانقلب التعصب ضد اليهود، والذى أدى لقمعهم ومصادرة أموالهم مرات عديدة فى أوروپا، وطردهم، وقتلهم، انقلب لدى البعض إلى احترام وحب لهم. ولكن اصطدم ذلك، خاصة فى روسيا الأرثوذكسية، بما وجده المسيحيون لدى اليهود من التكبر الناتج من القناعة بأنهم **شعب الله المختار**، والباقى هم **الأغيار**(**)، واصطدم فى بلاد أخرى مثل ألمانيا الكاثوليكية/ البروتستانية، بجاليات اليهود القوية وسيطرتهم

(*) باربرا توخمان مؤرخة يهودية، وتأسيس فكرة أن العالم مدين لليهود هى أحد الأركان التى بنى عليها الصهاينة وجوب مساعدة العالم لإسرائيل.

(**) اقرأ عن ذلك رسائل تولستوى فى المسألة اليهودية، تعريب موفق الديلمى، من منشورات دار ابن رشد. بيروت.

المتنامية على شئون الحياة التجارية والاقتصادية . وبالطبع **كان لدى المسيحيين أيضًا القناعة بأنهم شعب الله المختار سواء كانوا من الكاثوليك، أو البروتستانت** . كان اليهود يعيشون فى أوروبا فى جيتوهات خاصة بهم، ويعاملون - بصفة عامة - على أنهم بشر من الدرجة الثانية، وكان أحبارهم بمنزلة حكام لهم، وظهر ببطء تياران بين اليهود، يدعو أحدهما للذوبان فى البلاد التى يعيشون فيها، ويدعو الآخر للاستمرار فى الجيتوهات، حتى يظهر المسيح المنتظر، ولم يمثل التفكير فى العودة لفلسطين تيارًا رئيسيًا بين اليهود، وحتى مطلع القرن العشرين . وعندما تأكدت ملامح التنوير والليبرالية الأوروبية، زادت قوة التيار الذى يدعو للذوبان، فالتنوير والليبرالية الأوروبية كفيلان بإنهاء تراث التعصب المسيحى، والكاثوليكى بصفة خاصة ضد اليهود، واستبشر اليهود خيرًا بالمساواة وحقوق الإنسان، والليبرالية الثقافية، وكل توابع الفكر التنويرى فى أوروبا .

ولكن لم يجد التنوير ولا الليبرالية الأوروبية نفعًا أمام أسطورة الشعب المختار لدى كل من المسيحيين واليهود، وأمام الأسطورة العلمية الجديدة التى فجرها داروين عن البقاء للأصلح، فى عالم الحيوان وفى عالم الإنسان، فمن ابتعد عن الدين ، برر قانون الغابة، والأخطر بين الجميع من جمع بين الأسطورة الدينية والأسطورة العلمانية فى تبرير ما يفعله بالآخر من كل أنواع الاستلاب، وحتى أبشع درجات الاستباحة، وكل ذلك فعله الطرفان فى مكانٍ أو آخر، وزمانٍ أو آخر(*) .

يقول اليهود إن معاناتهم زادت منذ نهاية القرن التاسع عشر - الوقت الذى بدأت فيه أوروبا تحصد ثمار التنوير والليبرالية - من القمع والظلم ومصادرة الأموال والمذابح، فى أوروبا، ما بين روسيا فى الشرق، حتى فرنسا - التى يذكرون فيها قضية دريفوس الضابط اليهودى الذى اتهم بالخيانة باطلاً لأنه يهودى - إلى ألمانيا التى رفعت شعارات معاداة السامية مبكرًا، وأصدرت قوانين مايو ١٨٨٢م، التى تكفلت بتدمير الاقتصاد اليهودى فى ألمانيا، وإلى أن جاء هتلر بمذابحه .

(*) من أراد الاستزادة، يمكنه قراءة كتاب «الكتاب المقدس والاستعمار» القس مايكل پرير، من منشورات مكتبة الشروق الدولية .

بينما يقول الكاتب الروسى تولستوى، وهنرى فورد رجل الصناعة الأمريكى، إنه لا يوجد شعب أدمن الشكوى من الآخر مثل اليهود، فى الوقت الذى احترف فيه الاستفادة من الآخر واستغلاله والتآمر عليه.

ولدى كل الأطراف السابقة جزء من الصحة فيما يقول.

ولخصت توخمان موقف مفكرى اليهود فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بجملة كاشفة:

ثبت أن التنوير والليبرالية الأوروبية مجرد خداع!!

*** وعد بلفور عام ١٩١٧م**

لم يأت وعد بلفور من فراغ، فقد سبقه إعداد إعلامى فى الصحف والمجلات والكنائس والمعابد، وتشكيل العديد من اللجان وصناديق التمويل، لتعبئة الشعب الإنجليزى واليهود لإقامة إسرائيل من جديد، وجاءت الفرصة لتتويج ذلك العمل اللاهوتى الإمپريالى العنصرى بالنجاح على أرض الواقع، عندما تزايدت هجرة اليهود من روسيا إلى إنجلترا فى نهاية القرن التاسع عشر لما حل بهم من كوارث، مع رفض الإنجليز(*) - حتى المسيحيين الصهاينة منهم - لتلك الهجرة، والتى تسبب مشاكل متعددة، منها ما هو اقتصادى بمزاحمة الإنجليز فى أعمالهم وأموالهم، ومنها ما هو عنصرى، بالخوف على الجنس الأنجلوساكسونى الأعلى، من الجنس اليهودى الأدنى، وتزامن كل ذلك مع نضوج الأطماع البريطانية الإمپريالية فى الشرق الأوسط لموقعه الإستراتيجى فى الطريق إلى المستعمرات الأوروبية فى آسيا، وإفريقيا، ولم يكن البترول قد ظهر بعد على الساحة.

وماذا كان يحول دون تحقيق ذلك المشروع؟ تركيا؟ لقد أصبحت رجل أوروپا المريض الذى يتربص الجميع للانقضاض عليه، وهو ليس مريضًا فقط، بل هو مسلم متخلف أيضًا . . . تنجح فيه أسطورة شعب الله المختار - سواء كان المسيحى أو

(*) كذلك رفض الأمريكيون فى منتصف القرن العشرين هجرة الكثير من اليهود الفارين من أوروپا، وجاء فى كتاب «النبوءات الأمريكية - American Prophecies» أن الرئيس الأمريكى روزڤيلت أصدر أوامره للبحرية الأمريكية بمنع باخرة أقلت ٩٢٥ يهوديًا من دخول أمريكا عام ١٩٣٩م [ص ٨٤، ٨٥].

اليهودى - وتنجح أيضًا أسطورة داروين فى البقاء للأصلح ، وما تبعها من نظريات علمية قامت لتؤكد سمو العرق الأنجلوساكسونى على بقية الأعراق ، ومن ثم حقهم فى نشر حضارتهم وسيادتهم على بقية العالم ، وإذا لزم ، فلا مانع من استبعاد ذلك العالم المتخلف إذا أبى الهدية المقدمة من الجنس الأعلى ، ويمكن لهذا الاستبعاد أن يأخذ أشكالاً متعددة ، من الحجز فى محميات إلى الاستئصال بالإبادة .

وما يقال عن تركيا ، يقال أسوأ منه عن الفلسطينيين والعرب .

اقرأ مثلاً ما قاله وزير الخارجية ، والصحفى والصهيونى الإنجليزى ، لورنس أوليفنت الذى نشر عام ١٨٨٠م كتاب «أرض جلعاد» :

البدو المولعون بالحرب يجب أن يطردوا ، أما العرب الفلاحون فيوضعون فى أراض خاصة بهم كالهنود الحمر فى أمريكا الشمالية(*) .

واقرأ ما قاله بلفور :

ليس فى نيتنا حتى مراعاة مشاعر سكان فلسطين الحاليين . سواء كانت الصهيونية على حق أم باطل ، فإنها متأصلة الجذور فى التقاليد القديمة ، والحاجات الحالية ، وآمال المستقبل ، وهى ذات أهمية تفوق بكثير رغبات وميول السبعمائة ألف عربى الذين يسكنون هذه الأرض القديمة(**) .

لقد عمل الكثير من الصهاينة المسيحيين والصهاينة اليهود حتى خرج إعلان بلفور للوجود ، منهم تشارلز وارن ، الذى ألف كتاب «أرض الميعاد» فى عام ١٨٧٥م ، والقس الإنجيليكانى الملحق فى السفارة البريطانية فى ڤيينا ويليام هشلر ، والذى قام بدور رئيسى فى تقديم هيرتزل لمختلف الأوساط السياسية فى أوروپا الغربية ، ورتب له لقاء مع دوق بادن عم القيصر الألمانى ويليام الثانى ، والذى أسفر عن لقاءين مع القيصر بعد ذلك ، ولقاء مع چوزيف تشامبرلين رئيس الوزراء البريطانى الذى - رغم عدائه لليهود ، ورؤيته لهم على أنهم عرق أدنى من الأنجلوساكسون - رآهم صالحين للاستخدام فى زيادة رقعة الإمبراطورية البريطانية فى الشرق الأوسط .

(*) الصهيونية غير اليهودية ، ريچينا الشريف ، عالم المعرفة ص١٤١

(**) المرجع السابق ص ١٥٩ .

ولكن يبقى أهم شخصيتين وراء إعلان بلفور، آرثر چيمس بلفور، صاحب الإعلان، ووزير خارجية بريطانيا فى ذلك الوقت، ولويد چورچ، رئيس الوزراء.

توفى والد لويد چورچ وهو صغير، فكفله خاله الواعظ المتطوع فى إحدى فرق المعمدانيين، ونشأ على خلفية صارمة من العهد القديم، وقال إنه يعرف عن تاريخ إسرائيل أكثر مما يعرف عن تاريخ إنجلترا:

«نشأت فى مدرسة تعلمت فيها تاريخ اليهود أكثر من تاريخ بلادى، وبمقدورى أن أذكر أسماء جميع ملوك بنى إسرائيل، ولكنى أشك إن كنت أستطيع ذكر أسماء بضعة ملوك لإنجلترا»(*).

وجاء فى مذكراته:

لقد تأكدنا من المكاسب السياسية والمعنوية المتوقعة من تقدمنا على هذه الجبهة، وبخاصة من احتلالنا القدس.

أما بلفور، فقد جمع الحسنيين: الأساطير الدينية، والأساطير العلمانية... بل حتى فى الأساطير الدينية، جمع الحسنيين: فالمسيحيون هم شعب الله المختار، وكذلك اليهود، ولكن أساطيره لم تمنعه من أن يرفض الهجرة اليهودية لإنجلترا فيقول:

ليس من مصلحة حضارة الوطن أن يكون كثير من الأشخاص الذين يبقون نتيجة تصرفاتهم شعبًا مستقلاً، ويعتنقون دينًا يختلف عن دين الغالبية العظمى من مواطنيهم ولا يتزاوجون إلا من بنى جنسهم.

وكان رد فعل المؤتمر الصهيونى السابع هو اتهام بلفور بمعاداة السامية(**).

ويفصل بلفور فكره السياسى بطريقة أوضح:

أهمية الصهيونية للعالم غير اليهودى تكمن فى محاولتها التقليل من الويلات الأبدية التى أصابت الحضارة الغربية نتيجه وجود جسم غريب بل معادٍ، هى غير قادرة على إبعاده أو استيعابه(***).

(*) المرجع السابق ص ١٦٣.

(**)المرجع السابق نفسه والصفحة نفسها.

(***) المرجع السابق نفسه ص ١٥٨.

ويقول ستيفن سايزر عن بلفور :

ترعرع فى بيت إنجيليكانى ، وكان متعاطفًا مع الصهيونية بسبب تأثير العقيدة التدبيرية ، واعتبر أن التاريخ أداة لتحقيق القصد الإلهى [ص٣٧] .

وقبل أن ننتقل إلى الصهيونية المسيحية فى أمريكا ، نعلق تعليقًا عابرًا على وعد بلفور .

يتكلم الوعد عن تأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين ، وليس عن دولة ، وينص على أنه «يكون مفهومًا بأنه لا تقوم أى أعمال يمكن أن تلحق الضرر والتحيز ضد الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية الموجودة فى فلسطين» .

وليتأمل القارئ ، كيف تحول الوطن القومى الذى لا يلحق الضرر بالطوائف المسلمة والمسيحية فى فلسطين ، إلى دولة يهودية عنصرية عسكرية توسعية من الدرجة الأولى ، احتلت ، وتحتل حتى اليوم أراضى من فلسطين والأردن وسوريا ومصر ، وتهدد بأن يدها الطويلة يمكن أن تمتد إلى الجزائر غربًا وإيران شرقًا ، وتعبث فى جنوب السودان ، ومنابع نهر النيل ، وتخطط لعمل قناة تحل محل قناة السويس ، وتعلن أمام الحكام العرب أن من الأفضل للعرب قبول قيادتها للمنطقة بدلاً من مصر .

أضافت أمريكا للأساطير السابقة ، من الأساطير الأمريكية : المصير المحتوم ، أو حمل الرجل الأبيض ، أو رسالة الرجل الأبيض ، ثم أخطر الأساطير جميعًا : هرمجدون(*) ، والتى قامت على آخر أسفار العهد الجديد ، رؤيا يوحنا ، وأخيرًا وليس آخرًا ، أسطورة النظام العالمى الجديد والعولمة ، برغم تحذير هنرى فورد من اليهودى العالمى الذى يخطط لحكم العالم من القدس .

*** الصهيونية المسيحية فى أمريكا**

ما يزال غالبية العرب والمسلمين يتصورون أن الأمريكيين هم مَنْ يشاهدونهم فى أفلام هولى وود ، بينما يقول الكاتبان الإنجليزيان ميكلثوايت ، وولدريج فى «أمة اليمين» إن من يكتفى بزيارة الساحلين الشرقى والغربى للولايات المتحدة ، بمدنها

(*) يؤول بعض علماء الكتاب القدس المسيحيين ، رؤيا يوحنا ، بأنها تستلتزم عودة اليهود إلى فلسطين ، وقيام حرب فى موقع يسمى هرمجدون ، تسيل فيه الدماء إلى ارتفاع ألجمة الخيل ولمسافة ٣٢٠ كليومتر ، مما أولوه على أنها حرب نووية ، يموت منها ٢٠٠ مليون ، وبالطبع هم العرب (مسلمون ومسيحيون) ومن يحالفهم ضد المسيح وجيوشه ، وذلك لتبدأ الألفية المسيحية السعيدة .

الكبيرة نيويورك وواشنطن، وساحل فلوريدا فى الجنوب، ثم سان فرانسيسكو ولوس أنچلوس على الساحل الغربى، فهو لم يعرف أمريكا، فأمريكا هى أمة اليمين، أى أمة الصلاح والتقوى، أمة المحافظين وليس الليبراليين، أمة الصواب. الشعب الأمريكى هو أكثر شعوب الأرض تدينًا. . . هذا ما قاله ريتشارد هاس - مخطط الإستراتيچية فى وزارة الخارجية الأمريكية - منذ عدة أعوام فى التليفزيون، ردًا على تساؤل د. عبد المنعم سعيد: عندما نسمع الرئيس بوش يتكلم بأسلوبه الدينى عن الخير والشر، فإنه يذكرنا بكلام الملالى الذين يحكمون إيران؟! ضحك هاس قبل أن يجيب بأن ذلك ما يؤثر فى الشعب الأمريكى، فهو أكثر شعوب الأرض تدينًا.

يذهب أسبوعيًا إلى الكنيسة واحد من كل اثنين من المسيحيين فى أمريكا.

قرأ الشعب الأمريكى كتبًا دينية قيمتها ١,٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار عام ٢٠٠٣م، أى أكثر من ١٠ بلايين جنيه - كتاب بريتانيكا لعام ٢٠٠٥م -، ولا أظن أن كل المسلمين منذ ظهور الإسلام حتى اليوم، قرءوا كتبًا دينية قيمتها ١٠ بلايين جنيه(*).

فقد هاجر البيوريتانز، وهم المسيحيون البروتستانت المتشددون، إلى العالم الجديد فى مطلع القرن السابع عشر، ليعبدوا الله بالطريقة الصحيحة، ولينشروا المسيحية، وبنص كلمات ميثاق «زهرة مايو - May Flower»، المركب التى أقلتهم إلى أمريكا:

«باسم الله، نحن الموقعين على هذا، الرعايا المخلصين لمولانا الملك المهيب چيمس، بفضل الله، ملك بريطانيا العظمى وفرنسا وأيرلندا، وحامى الدين. لما كنا قد قمنا بهذه

(*) ومن يريد الاستزادة عن تدين الشعب الأمريكى، وتأثير الدين على حياته، السياسية وغير السياسية، فأرشح له القائمة الآتية من الكتب الأمريكية المترجمة إلى العربية:
* أرض الميعاد والدولة الصليبية: والتر مكدوجال - دار الشروق.
* الدين والسياسة فى الولايات المتحدة: مايكل كوربت، چوليا ميتشل كوربت - مكتبة الشروق الدولية.
* أصول التطرف: اليمين المسيحى فى الولايات المتحدة: كيمبرلى بلاكر - مكتبة الشروق الدولية.
* تاريخ نهاية العالم: جوناثان كيرش - مكتبة الشروق الدولية.
* بلد الله: والتر راسيل ميد - مكتبة الشروق الدولية.
* أمة اليمين: چوناثان ميكلثوايت، أدريان وولدريچ - مكتبة الشروق الدولية.

ومن الكتب العربية:
* الصهيونية غير المسيحية - ريچينا الشريف - عالم المعرفة.
* المسيح اليهودى ونهاية العالم - رضا هلال - مكتبة الشروق الدولية.
* البعد الدينى فى السياسة الأمريكية - د. يوسف الحسنى - مركز دراسات الوحدة العربية.
* مقدمة فى الأصولية المسيحية فى أمريكا والرئيس الذى استدعاه الله وانتخبه الشعب الأمريكى مرتين - عادل المعلم - مكتبة الشروق الدولية.

الرحلة تمجيداً لله وإعلاءً لشأن المسيحية، وتبجيلا لمليكنا وأمتنا، ولننشئ أول مستعمرة في الجزء الشمالي من ڤيرچينيا، فإننا بموجب هذا الميثاق نتعاقد بإخلاص أمام الله، ونكون منا هيئة مدنية سياسية لتحسين أمورنا وصيانة حياتنا وتعزيز هذه الأغراض المذكورة، وبناء على ذلك سنسن من وقت لآخر من القوانين واللوائح العادلة ونقرر من النظم والوظائف ما نعتقده في مصلحة المستعمرة وخيرها الشامل، ونتعهد بالخضوع لها وطاعتها».

رأى البيوريتانز المهاجرون للعالم الجديد أنهم شعب الله المختار (الجديد)، الذى يعبر المحيط (بدلاً من البحر الأحمر أو خليجه أو بحيراته) إلى أرض الميعاد (الجديدة) أمريكا، وأن أصحاب الأرض الأصلية، أى ما سموهم الهنود الحمر، هم الكنعانيون، وأعداء إسرائيل. عاش الأمريكيون دورهم كشعب الله المختار، يترددون بين طاعة الله وعصيانه، مثل اليهود فى العهد القديم، إلى نهاية القرن التاسع عشر، حين ألمت بهم ثلاث صدمات كبرى. . . . الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب، والتى استمرت أكثر من خمس سنوات، وحصدت أرواح أكثر من نصف مليون أمريكى، بخلاف الجرحى والمصابين، ولم يكن تعداد الأمريكيين ذلك الوقت يتجاوز ٣٠ مليونًا. . . . ثم موجات الهجرة الأوروبية، بما حملته من كاثوليك ويهود وعلمانيين وليبراليين على الطريقة الأوروبية. . . وأخيراً ظهر داروين بكتابيه عن الخلق والتطور. . . وما جاء به مخالفًا لرواية الكتاب المقدس عن بداية الخلق. . . وانقسم المسيحيون الملتزمون إلى الأصوليين(*) الذين يؤمنون بعصمة الكتاب المقدس وضرورة تفسيره الحرفى، من ضمن أفكار أخرى، والمسيحيين الملتزمين الليبراليين، الذين رأوا أن الاتجاه الأول سيجلب مشاكل على المسيحية، وسيخلف آثاراً مدمرة عليها؛ ولذلك يجب ألا يؤخذ الكتاب المقدس حرفيًا، بل الواجب هو تحويله لإنجيل اجتماعى، لعمل الخير فى المجتمع.

ومع توالى الأخطاء البشرية الكبرى، وتزايد حدتها وأحجامها وآثارها ومعدلاتها، فى أمريكا والعالم، بدأ تطوير فكرة المجىء الثانى للمسيح إلى أن مجيئه يجب أن يسبق

(*) ظهر مصطلح أصولى فى الولايات المتحدة عام ١٩١٢م، مع نشر سلسلة الأصول، التى تبين الأصول التى تقوم عليها العقيدة المسيحية.

الألفية السعيدة التى يعيش فيها المجتمع المسيحى فى سلام وكمال، بعد أن تأكد علماء التدبيرية بأن الأمور تسير من السيئ إلى الأسوأ، خاصة بعد نشوب الحربين العالميتين، الأولى والثانية، وأنه لن يصل المجتمع المسيحى أبدًا إلى ذلك السلام والكمال الذى يشترطونه لتحقيق المجيء الثانى للمسيح، بل تطرف البعض منهم قائلاً إن تحقيق السلام لن يأتى بالمسيح، بل تأتى به الفوضى العارمة، والمزيد من الصراعات والحروب، والتى تنتهى بمسك الختام، معركة هرمجدون.

مرت المسيحية فى أمريكا بعدة صحوات كبرى، بمعدل مرة كل قرن، ورأى البعض أن الصحوات استمرت بما يشبه التلاحم. وبالطبع كانت هناك جولات عديدة بين الأصوليين والإيڤانجيليكيين والمحافظين من جانب، والليبراليين المسيحيين من جانب آخر، تبادلا فيها البروز والظهور، وكانت آخر جولة لليبرالية المسيحية فى ستينيات القرن الماضى، ومن بعدها تصاعد مد المحافظين وفى إثره الإيڤانجيليكيين والأصوليين، وحتى اليوم.

أضاف الأصوليون الأمريكيون أسطورة هرمجدون ونهاية الزمان، بتأويل - برغم أنهم يصرون على التفسير الحرفى للكتاب المقدس(*) - سفر الرؤيا، آخر أسفار العهد الجديد.

وسفر الرؤيا ملىء بالأحلام والرموز التى تتسع لتأويلات متباعدة، انتقى منها الأصوليون والإيڤانجليكيون ضرورة قيام إسرائيل، وضرورة نشوب حرب دموية فى موقعة هرمجدون، يصل فيها الدم إلى ألجمة الخيل، ولمسافة ٣٢٠ كيلومترًا (طبقًا لشرح السفر).

«وجمعت الأرواح الشيطانية جيوش العالم كلها فى مكان يسمى بالعبرية هرمجدون» [الرؤيا ١٦ : ١٦].

ولقد مثل قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٧م لدى الصهاينة - والمسيحيين الأصوليين والإيڤانجيليكيين والمحافظين - تحقيقًا لنبوءات الكتاب المقدس بعهديه، القديم والجديد،

(*) هناك فى العهد القديم آية بمنزلة حجر عثرة لكل من يصر على التفسير الحرفى للكتاب المقدس من المسيحيين، ويصر فى الوقت نفسه على أرض الميعاد وشعب الله المختار، فقد جاء تحت عنوان العهد والختان: .. «ها هو عهدى الذى بينى وبينك وبين ذريتك ... أن يختتن كل ذكر منكم.. أما الذكر الأغلف الذى لم يختتن، يستأصل من بين قومه» [سفر التكوين ١٧ : ١٠ - ١٤].

ثم جاءت حرب ١٩٦٧م لتشعل صحوة صهيونية متأججة ، استمرت فى التزايد حتى اليوم تقريبًا. ولكن لا يفوتنا التنويه عن أن بعضًا من الصهاينة ، يهودًا ومسيحيين ، انقلبوا ضد الصهيونية لما رأوه من ممارسات إسرائيل مع الفلسطينيين ، ومع الدول العربية ، وكذلك لا يفوتنا أن نخص بالذكر الناشطة الأمريكية اليهودية ، الشابة اليافعة راشيل كورى ، التى ذهبت لمعاينة الواقع ، فتعاطفت مع الحق الفلسطينى حتى دفعت حياتها ثمنًا لاعتراضها بلدوزر إسرائيلى فى طريقه لتدمير بيت فلسطينى فى غزة.

وقد تزامن استواء الصهيونية المسيحية فى أمريكا ، فى منتصف القرن الماضى ، مع تطلعات الإمبراطورية الأمريكية لحكم العالم ، بعد أن خرجت المنتصر الأكبر من الحرب العالمية الثانية ، ثم تزايد النفوذ اليهودى بصفة عامة ، والصهيونى بصفة خاصة منذ منتصف القرن ، حتى وصل ذروته بعد حرب ١٩٦٧م ، واقرأ ما كتبه حما بيلى جراهام ، الداعية الإيفانجيليكى الأكبر فى القرن الماضى ، ورئيس تحرير مجلة «المسيحية اليوم» فى افتتاحيته :

لأول مرة منذ أكثر من ٢٠٠٠ سنة ، أصبحت القدس تحت سيطرة اليهود ، وهذا ما يعطى طلاب الكتاب المقدس الفرح والإيمان المتجدد بصحة ومصداقية الكتاب المقدس.

سيطر على معظم المسيحيين الأمريكيين مفهوم أن الرب يبارك من يبارك إسرائيل ، ويلعن من يلعن إسرائيل ، لدرجة أن بعضهم رفع شعار : **إسرائيل مفتاح بقاء أمريكا !** وتطلعوا لحرب هرمجدون ، وظهرت فى ذلك الروايات والمسلسلات والأفلام ، من بينها سلسلة هرمجدون ، للقس تيم لاهاى والروائى چيرى چينكنز ، وقد وزعت أكثر من ٦٣ مليون نسخة ، وصدر منها عملاً يناسب الفتيان ، كذلك وزع كتاب هال ليندسى «الكرة الأرضية العظيمة السابقة - **Late Great Planet Earth**» أكثر من عشرين مليون نسخة ، وتحول إلى فيلم سينمائى.

وتروى الكاتبة جريس هالسل ، والتى عملت فى إدارة الرئيس چونسون ، فى كتبها كيف كان ريجان ينتظر هرمجدون ويقتنع بأنه يعيش الجيل الذى سوف يشهدها ؛ ولذلك لم يكن يهتم بالعجز فى الميزانية ، فهرمجدون على الأبواب ، وبرر بعض المحللين قصفه ليبيا بأنه كان يتصور أن تلك بداية هرمجدون. كذلك تروى جريس

هالسل، وغيرها، كيف كان ريجان يستعين بغلاة الصهاينة مثل چيرى فالويل، الذى مات قريبًا، وهال ليندسى، ليشرحوا لمجلس الأمن القومى، وچنرالات وزارة الدفاع، ماذا على أمريكا أن تفعل إذا ما قامت هرمجدون!

وبرغم بدء ظهور أصوات قوية فى أمريكا ضد سياستها فى الشرق الأوسط، مثل تلك الدراسة التى أعدها البروفيسور ستيڤن إم. والت أستاذ العلوم السياسية فى جامعة هارڤارد - التى يقال إن خرجيها يحكمون العالم - والبروفيسور چون چيه. ميرشايمر من جامعة شيكاجو بعنوان «اللوبى الإسرائيلى وسياسة أمريكا الخارجية» والتى تخلص إلى أن السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط تخدم مصالح إسرائيل وليس مصالح أمريكا، وكذلك صدور كتاب الرئيس السابق كارتر عن الجدار العنصرى فى إسرائيل، وقيام عدة مؤسسات وكنائس بمعارضة السياسة الإسرائيلية، فإن التحيز الأمريكى الصارخ لإسرائيل يتزايد منذ أيام ترومان(*)، الذى اعترف بإسرائيل بعد بضعة دقائق من إعلان قيامها(**)، بل إنه تضاعف أضعافًا مضاعفة مع **چورچ بوش الإيڤانجيليكى، إن لم يكن الأصولى، والذى يؤمن بأن الله كلفه برئاسة الولايات المتحدة، وبتنفيذ مخططاته فى الشرق الأوسط.**

القرن الواحد والعشرون

- الإمبراطورية الأمريكية والعولمة وهرمجدون

- واليهودى العالمى وهرمجدون

تجادل الصفحات السابقة أن وعد بلفور، وتقسيم فلسطين، وقيام الدولة اليهودية، ما هو إلا نتاج تضافر عوامل دينية ودنيوية... أو دينية وعلمانية.

(*) ليس من المستغرب أن ينحاز معظم صانعى السياسة والإعلام فى الولايات لإسرائيل، فهناك من ينحاز لدافع دينى، وهناك من ينحاز استجابة للضغوط الصهيونية، مع عدم وجود أى ضغوط عربية أو إسلامية مقابلة.

(**) اعترف ترومان بإسرائيل، ووافق على قرار تقسيم عام ١٩٤٧م فلسطين برغم معارضة وزارة الخارجية ووزارة الدفاع، ومعارضة شركات البترول لمصالحها مع العرب، وأسس ترومان ذلك على خلفيته التوراتية، وتروى ريچنيا الشريف أنه فى أحد التجمعات اليهودية لتكريم ترومان، قدمه المضيف على أنه ساعد كثيراً فى قيام دولة إسرائيل، فاعترض ترومان قائلاً «بل أنا قورش الذى أعاد إسرائيل» وقورش هو الملك الفارسى الذى يحكى العهد القديم أنه أعاد إسرائيل من السبى إلى فلسطين.

فاليهود شعب الله المختار، الذى يجب أن يعود لأرض إسرائيل، تلك هى عقيدة البروتستانت، أو الواسپ (White Anglo Saxon Protestant). وبرغم أن اليهود شعب الله المختار، فالأنجلوساكسون ـ وهم أيضًا شعب الله المختار، بصفة خاصة، وأوروپا بصفة عامة ـ تراهم عرقًا أدنى، فلا يريدون اليهود بينهم، والحل الأمثل لذلك إرسالهم لفلسطين، ليعملوا لحساب الإمبراطورية البريطانية، وبذلك يتم إصابة ثلاثة عصافير بحجر واحد.

تزعمت الولايات المتحدة العالم الغربى بعد الحرب العالمية الثانية، ثم تزعمت العالم كله بعد تفكك الاتحاد السوڤييتى، **ومثّل الإيڤانجيليكيون ربع عدد الناخبين الأمريكيين (٧٠ - ٨٠ مليونًا تقريبًا)، وأصبحوا يشكلون السياسة الأمريكية، داخليًا وخارجيًا**(*)، ومن ثم أصبح الالتزام بإسرائيل، بقاؤها وتفوقها العسكرى على كل البلاد العربية، انتظارًا وتطلعًا لهرمجدون، التزامًا أخلاقيًا رئيسيًا فى سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، وتفاعل ذلك مع زيادة النفوذ الصهيونى واليهودى، مما أسفر عن السيطرة الصهيونية واليهودية على وسائل الإعلام، وعلى سياسة الإدارة الأمريكية والكونجرس فى الشرق الأوسط.

وعلى التوازى مع ذلك، رأت قوى العولمة، وهى مزيج فريد من اليمين السياسى والرأسمالية، رأت فى الإسلام الأيديولوچى، الأيديولوچيا الوحيدة الباقية التى قد تمثل حجر عثرة فى سيطرتها على العالم.

وبدأت الإدارة الأمريكية، وتتبعها حكومات أوروپا الغربية، فى التخطيط لبرنامج طويل الأجل، يعمل على تغيير أفكار وعقول وتعليم وثقافة ودين العرب والمسلمين، حتى يرضخوا للنظام العالمى الجديد حسبما تراه الإدارة الأمريكية، ومن أساسياته قبول إسرائيل.

وتصاعد مع كل ذلك نفوذ اليهودى العالمى، كما سماه ورآه هنرى فورد فى عشرينيات القرن الماضى، وهو اليهودى الذى يريد أن يحكم العالم كله من القدس(**)

(*) اقرأ ذلك فى مقالة: «بلد الله»، فى الدورية السياسية الأمريكية الشهيرة: Foreign Affairs، عدد سپتمبر/ أكتوبر ٢٠٠٦م، ونشرتها مكتبة الشروق الدولية باللغة العربية بالاسم نفسه «بلد الله».

(**) كتب هنرى فورد سلسلة من المقالات عن ذلك، جمعها كتاب «International Jew»، وترجمته مكتبة الشروق الدولية فى أربعة أجزاء.

فلم تعد القضية تقتصر اليوم لدى اليهودى العالمى على العودة إلى صهيون أو أرض إسرائيل، بل فى حكم الشرق الأوسط ثم العالم من عرش داود وهيكل ابنه سليمان، رغم أن الكتاب المقدس يروى أن سليمان تزوج بنساء أجنبيات، فأغرينه على عبادة الأوثان من آلهتهن، فاستجاب لهن، أى أنه أصبح النبى الكافر، وبنص الكتاب المقدس:

زوجات سليمان:

«وأولع سليمان بنساء غريبات كثيرات فضلاً عن ابنة فرعون، فتزوج نساء موآبيات، وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات، وكلهن من بنات الأمم التى نهى الرب بنى إسرائيل عن الزواج منهم قائلاً لهم: «لا تتزوجوا منهم ولاهم منكم، لأنهم يغوون قلوبكم وراء آلهتهم». ولكن سليمان التصق بهن لفرط محبته لهن. فكانت له سبعمائة زوجة، وثلاثمائة محظية، فانحرفن بقلبه عن الرب. فاستطعن فى زمن شيخوخته أن يغوين قلبه وراء آلهة أخرى، فلم يكن قلبه مستقيمًا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. وما لبث أن عبد عشتاروث آلهة الصيدونيين، وملكوم إله العمونيين البغيض، وارتكب الشر فى عينى الرب، ولم يتبع سبيل الرب بكمال كما فعل أبوه داود. وأقام على تل شرقى أورشليم مرتفعًا لكموش إله الموآبيين الفاسق، ولمولك إله بنى عمون البغيض. وشيد مرتفعات لجميع نسائه الغريبات، اللواتى رحن يوقدن البخور عليها ويقربن المحرقات لآلهتهن» [سفر الملوك الأول، ١١ : ١-٨].

وعيد الرب لسليمان:

فغضب الرب على سليمان لأن قلبه ضل عنه، مع أنه تجلى له مرتين، ونهاه عن الغواية وراء آلهة أخرى، فلم يطع وصيته؛ لهذا قال الله لسليمان «لأنك انحرفت عنى ونكثت عهدى، ولم تطع فرائضى التى أوصيتك بها، فإنى حتمًا أمزق أوصال مملكتك، وأعطيها لأحد عبيدك، إلا أننى لا أفعل هذا فى أيامك، من أجل داود أبيك، بل من يد ابنك أمزقها، غير أنى أبقى له سبطًا واحدًا، يملك عليه إكرامًا لداود عبدى، ومن أجل أورشليم التى اخترتها» [سفر الملوك الأول، ١١ : ٩-١٣].

وبعـــــد

قامت دولة إسرائيل اليهودية على اجتماع أساطير دينية وعلمانية وعنصرية (الشعب المختار - أرض الميعاد - شروط المجيء الثانى للمسيح وهرمجدون)، وأسطورة البقاء للأصلح الداروينية، وحمل الرجل الأبيض فى نشر ثقافته وقيمه فى العالم، مع أطماع الرأسمالية العالمية - المتغيرة - كل ذلك على حساب سكان المنطقة الغافلين والواهمين، وندرة من الغانمين، برغم أنهم لم يعادوا اليهود، ولم يفعلوا بهم ما فعلته أوروپا المسيحية، ولا أوروپا الليبرالية التنويرية.

دفعت المنطقة ثمنًا غاليًا لذلك، وما زال الثمن الأغلى قادمًا، من أجل عيون صهيون، والجنس الأعلى، والدولار الأمريكى.

عـادل المعلـم

الدولة اليهودية

تيودور هيرتزل

تقديـم

إن الفكرة التى أطرحها فى هذا الكتاب إنما هى فكرة بالغة القدم ؛ ألا وهى إحياء دولة اليهود.

إن العالم يدوى بالصيحات العالية ضد اليهود، وهذه الصيحات هى ما أيقظ الفكرة من سباتها.

أتمنى أن يكون مفهومًا بوضوح، من البداية، أن كل ما ذُكر فى هذا الكتاب لا يستند على الإطلاق إلى أية اكتشافات جديدة ؛ فأنا لم أكتشف لا حالة اليهود التاريخية ولا سبل الارتقاء بها. وسيرى كل قارئ بنفسه أن مواد البناء التى أستخدمها ليست موجودة بالفعل فحسب، بل وفى متناول الجميع. ومن ثم، إن أردت وصف هذه المحاولة نحو حل القضية اليهودية فى كلمة واحدة، فلنقل إنها نتاج نهاية حتمية لا مفر منها، وليست بسبب وهم أحمق.

وأرى أنه من الضرورى، فى المقام الأول، أن أدافع عن مخططى من أن يوصف بكونه محاولة للوصول إلى المدينة الفاضلة من قبل النقاد السطحيين الذين قد يرتكبون خطأ إصدار الحكم ما لم أحذرهم من ذلك. وحتى إذا ما كنت قد وصفت المدينة الفاضلة فى سياق أحداث إنسانية، فلم يكن هذا ليشعرنى بالخجل ؛ بل ولكنت ظفرت بنجاح أدبى أكثر سهولة إذا عرضت خطتى فى هيئة رواية رومانسية غير مسئولة. ولكن هذه المدينة الفاضلة تقل فى جاذبيتها بكثير عن أى من تلك الروايات التى كتبها السير توماس مور والعديد من سلفائه وخلفائه. وإنى لأؤمن بأن موقف اليهود فى العديد من البلاد قد أصبح خطيراً بما فيه الكفاية مما يجعل من هذا التمهيد عبثًا لا حاجة له.

ربما يساعد كتاب «الأرض الحرة ـ Freiland» ذلك الكتاب الرائع الذى كتبه د. تيودور هرتزقا، والذى ظهر منذ بضع سنوات، فى أن يبرز الفارق بين المفهوم

الذى أقصده وبين المدينة الفاضلة، فمفهومه هو الاختراع البارع لعقل حديث تلقن دروسه فى مبادئ الاقتصاد السياسى، وإنه لبعيد عن الواقع بُعد الجبل الاستوائى حيثُ يقبع حلمه بإقامة دولة اليهود. وتُعد رواية «الأرض الحرة ـ Freiland» مجموعة معقدة من الآليات والعجلات المعشقة تتناسب مع بعضها البعض، ولكن دونما دليل على أنها قد تتحرك. وحتى مع افتراض تحول مجتمعات «الأرض الحرة» إلى واقع ملموس، فلا يسعنى إلا النظر إلى الأمر برمته على أنه مجرد مُزحة.

ومن ناحية أخرى، فإن المخطط القائم يشمل توظيف قوة دافعة موجودة بالفعل. وأخذاً فى الاعتبار قصورى الخاص بالأمر، سأكتفى بالإشارة إلى سنون الآلة وعجلاتها محل الإنشاء، وسأترك أمر تجميعها للميكانيكيين الأكثر براعة منى فى ذلك.

فكل شىء يعتمد على تلك القوة الدافعة، . . فما هى؟ إنها مأساة اليهود.

من يجرؤ على إنكار وجودها؟ ولسوف نناقشها تفصيلاً فى الفصل الذى يتناول أسباب معاداة السامية.

يعرف الجميع ظاهرة قوة البخار التى تتولد من غليان المياه، حتى يرتفع غطاء الغلاية، وظاهرة غليان الشاى هذه هى محاولات المؤسسات الصهيونية وعشائرها لكبح معاداة السامية.

وأرى أن هذه القوة ـ إذا تم توظيفها على النحو الصحيح ـ سيكون لها من التأثير ما يكفى لإدارة محرك ضخم، ولتحريك المسافرين والبضائع، أيّا كان شكل المحرك الذى يختاره الرجال.

وأنا مقتنع تمامًا بأننى على صواب، رغم شكى فى أنى سأحيا حتى تثبت الأيام أننى كنت على حق، فهؤلاء الذين سيبدءون هذه الحركة لن يعيشوا لرؤية نهايتها المجيدة، بيد أن فى خلقها ما يكفى من الفخر والسعادة بنوع من الحرية الروحانية.

ولن أسهب فى إعطاء وصف فنى مفصل لمشروعى خوفًا من إثارة الشكوك بأنى أرسم صورة المدينة الفاضلة. وعلى أية حال، فإننى أتوقع أن يسخر المتهكمون الطائشون من عملى هذا ويحاولوا إضعاف أثره. وقد كان رأى أحد اليهود ـ ممن

وُهب الذكاء والفطنة فى أمور أخرى ـ بعد أن شرحت له مخططى ، أن «المدينة الفاضلة كانت مشروع قدمت تفاصيله المستقبلية كحقيقة باقية» . وهذه مغالطة ، فكل وزير مالية يحسب فى موازنته تقديرات بأرقام افتراضية ؛ ليس فقط تلك المبنية على متوسط إيرادات الأعوام السابقة لبلده أو البلاد الأخرى ، بل وأحيانًا على أرقام ليس لها أية أصول على الإطلاق ، مثلما يحدث عند فرض ضريبة جديدة على سبيل المثال. فكل من يدرس علم الميزانيات يعرف أن الأمر يسير فى هذا النصاب ، فهل العلم بأنه لن يتم الالتزام بهذه التقديرات على نحو دقيق يعنى اعتبار مثل هذا المشروع المالى مدينة فاضلة؟

ولكنى أتوقع من قرائى أكثر من هذا ، وأطلب من النخبة المثقفة التى أوجه إليها حديثى أن ينحوا جانبًا العديد من الأفكار المسبقة . بل وسأذهب إلى أبعد من هذا مطالبًا اليهود الذين بذلوا أقصى جهدهم لإيجاد حل للمسألة اليهودية أن ينظروا إلى كافة محاولاتهم السابقة باعتبارها خاطئة وعقيمة .

وأرى أنه هناك خطر ما يجدر بى الاحتراس منه عند تقديم أفكارى ؛ إذا شرعت فى وصف الظروف المستقبلية بحذر بالغ ، فسأبدو وكأننى لا أثق فى إمكانية حدوثها ، ومن ناحية أخرى ، إذا أكدت على إمكانية تحقيقها بلهجة شديدة الثقة ، فسأكون كالذى يصف وهمًا لا سبيل إلى تحقيقه .

ومن ثم ، فإننى سأعلن بشكل واضح ودقيق أننى أؤمن بالنتيجة العملية التى أتوقعها من وراء مخططى ، دونما ادعاء بمعرفتى الشكل الذى سيأخذه هذا المخطط فى نهاية الأمر : الدولة اليهودية أمر جوهرى للعالم ، ومن ثم فإنه لا مناص من إقامتها .

وبالطبع ستبدو الخطة شديدة السخافة إذا ما حاول فرد واحد تحقيقها ؛ أما إذا تعاون عدد من اليهود على تنفيذها فستبدو منطقية تمامًا ، ولن يشكل إتمامها أى صعوبة تذكر . يتوقف الأمر فقط على عدد مؤيديها ، وأحسب أن رواج الفكرة سيعتمد فى الأساس على شباب اليهود المتحمس الذين انغلقت أمامهم كل سبل التقدم ، ويرون فى هذه الدولة اليهودية الغد المشرق الحامل لكافة معانى الحرية والسعادة والشرف .

وأشعر أن مهمتى قد انتهت بنشر هذا الكتاب ، ولن أمسك بقلمى مرة أخرى ما لم أكن مدفوعًا إلى ذلك بهجوم خصوم ذوى شأن بارز ، أو إن كان لا مناص من مواجهة اعتراضات مباغتة أو إزالة بعض الأخطاء .

تُرى . . هل ما أقول الآن بعيدا عن الواقع؟ هل أسبق أوانى؟ أليست معاناة اليهود الآن فادحة بالقدر الكافى؟ سنرى .

يتوقف على اليهود أنفسهم أن يبقى هذا الكتيب السياسى مجرد خيال سياسى ، وإذا كان الجيل الحالى بهذا القدر من الفتور بحيث يعجز عن فهم هذا الكتيب على النحو الصحيح ، فسينهض فى المستقبل جيل أفضل وأحسن يستطيعون فهمه . فاليهود الذين يحلمون بالدولة سيحصلون عليها ، ولسوف يستحقونها .



الفصل الأول

مقدمة

تثير دهشتى البصيرة الضعيفة فى علوم الاقتصاد لدى كثير من أصحاب الحياة النشطة، ومن هنا تجد البعض من اليهود أنفسهم يكررون عن اقتناع تام صيحة معاداة السامية: «نحن نعتمد فى بقائنا على دعم الأمم التى تستضيفنا، وإن لم تكن تلك الدول هناك لدعمنا لمتنا جوعًا». تُظهر لنا هذه النقطة كيف يمكن لهذه الاتهامات الظالمة أن تضعف إدراكنا لأنفسنا. ولكن ما هى الأسس الحقيقية لتلك العبارة الخاصة بالأمم التى تقوم بدور «المضيف»؟ . حيث إنها لا تقوم على أفكار فيزيوقراطية(*) محدودة، فهى تعتمد على الخطأ الساذج الذى يذهب إلى أن السلع تنتقل من يد إلى أخرى فى دوران مستمر، ونحن لسنا بحاجة إلى الاستيقاظ من سبات عميق، مثل ريپ ڤان ڤينكل، حتى يمكننا أن ندرك أن العالم قد تبدّل كثيراً من خلال إنتاج سلع جديدة، فالتقدم التكنولوچى الذى شهدته هذه الحقبة الزمنية الرائعة من شأنه أن يمكن - حتى أقل الرجال ذكاءً - من أن يدرك بقصر نظره ظهور أنواع جديدة من السلع حوله، خلقتها روح المغامرة التجارية.

إن العمل بدون روح المغامرة هو العمل الراكد للزمن القديم؛ تمامًا كالفلاح الذى يقف الآن تمامًا حيث وقف أسلافه منذ ألف عام. إن كافة وسائل الرفاهية المادية المتاحة لنا الآن هى نتاج جهود رجال يملكون روح المغامرة، حتى أنى أشعر بالخجل إبان قيامى بكتابة ملحوظة سخيفة كهذه. حتى وإن كنا أمة من التجار المغامرين - مثلما تبالغ بسخف الأقوال التى تجعلنا نبدو هكذا - فلا يجدر بنا أن نحتاج إلى أمة أخرى لنعيش عليها. نحن لا نعتمد على تداول السلع القديمة لأننا ننتج أخرى جديدة.

لدى العالم عبيد يتمتعون بقدرة هائلة على العمل ممن أدى ظهورهم إلى اختفاء السلع اليدوية: هؤلاء العبيد هم الآلات. صحيح أننا نحتاج إلى العمال لتشغيل

(*) الفيزيوقراطية مبدأ ظهر فى القرن الثامن عشر فى فرنسا، ونادى أصحابه بحرية الصناعة والتجارة وبأن الأرض هى مصدر الثروة - المورد.

الآلات ؛ إلا أنه لدينا لهذا الغرض العديد من العمال ، فى وفرة زائدة عن الحاجة . وفقط لدى الجاهلين بأوضاع اليهود فى العديد من دول أوروبا الشرقية الجرأة على ادعاء أن اليهود إما غير صالحين أو غير راغبين فى القيام بالأعمال اليدوية .

ولكنى لا أريد فى هذا الكتاب أن أبدو كالمدافع عن اليهود ؛ فسوف يكون ذلك بلا جدوى . فكل ما يمكن أن يقال للدفاع عنهم سواء كان فى عبارات منطقية أو عاطفية قد سبق قوله بالفعل . فإن لم يكن لدى المستمعين القدرة على استيعابها ، يكون المرء كالواعظ فى الصحراء . أما إذا كان المستمعون يتميزون بأفق واسع وقدر كاف من الذكاء بحيث يمكنهم فهمها على الفور ، فعندها تصبح الموعظة بلا ضرورة . إننى أؤمن بقدرة الإنسان على الارتقاء بصفة مستمرة لدرجات أعلى وأعلى من الحضارة ؛ ولكنى أرى أن هذا الارتقاء يتم فى بطء شديد . وإذا كان علينا أن ننتظر إلى أن يصبح الفرد العادى على القدر نفسه من حب الخير الذى كان يتحلى به ليسينج عندما قام بكتابة «ناثان الحكيم ـ Nathan der Weise» فسوف نحتاج إلى أن ننتظر إلى ما بعد يومنا ، وما بعد أيام أطفالنا ، وأيام أحفادنا ، وأيام أحفاد أحفادنا . ولكن ، تأتى إلينا روح العالم لتمد لنا يد المساعدة من جهة أخرى .

لقد أنعم هذا القرن على العالم بنهضة رائعة من خلال الإنجازات التكنولوچية التى شهدها ؛ ولكن فى الوقت ذاته لم يتم توظيف هذا التقدم المذهل فى خدمة الإنسانية . فبالرغم من أن المسافات لم تعد تشكل أى عائق ، ما زلنا نشكو ضيق المساحة . تحملنا سفننا الضخمة بسرعة وسلامة إلى بحار كنا نجهلها من قبل ، وتصعد بنا السكك الحديدية بأمان إلى أعالى الجبال التى كان الفرد يتسلقها من قبل على قدمين مرتعشتين من الخوف . وفى خلال ساعة واحدة من الزمان أصبحنا نعلم ما يقع من أحداث فى بلدان لم يكن قد تم اكتشافها بعد خلال الفترة التى أجبرت فيها أوروبا اليهود على السكن بأحياء محددة . ومن ثم ، فإن مأساة اليهود لم تعد تناسب هذا العصر ـ ليس بسبب حركة التنوير التى قامت منذ مائة عام مضت ، حيث إن هذا التنوير لم يصل فى حقيقة الأمر إلا إلى صفوة العقول .

فأنا أؤمن تمامًا بأنه لم يتم اختراع المصباح الكهربائى بهدف إضاءة غرف الرسم الخاصة ببعض المبتكرين ، بل لإلقاء الضوء على بعض مشكلات الإنسانية المعتمة .

أحد هذه المشكلات ، وليست أقلها شأنًا ، هى قضية اليهود . وفى حلها ، نحن لا نعمل فقط من أجل أنفسنا ، بل من أجل العديد من المقهورين والمثقلين بالأعباء .

ما زالت قضية اليهود قائمة ، وسيكون من الحماقة إنكار ذلك . إنها من بقايا العصور الوسطى ، حيث يبدو أن الأمم المتحضرة بالرغم من كل ما بذلته من جهد لا تستطيع أن تحسمها . لقد أظهروا بالتأكيد رغبة كريمة للقيام بذلك عندما قاموا بتحريرنا ، غير أن القضية اليهودية تطرح نفسها حيثما يعيش اليهود بأعداد ملموسة . وحيث لا يكون لها وجود [بعدم وجود اليهود] ، فإن اليهود ينقلونها معهم فى مسيرة ترحالهم . ومن الطبيعى أن نرتحل إلى الأماكن التى لا نتعرض فيها إلى الاضطهاد ، ولكن ما إن نظهر حتى نتعرض للاضطهاد . هذا هو الحال فى كل دولة ، وسيظل كذلك حتى فى الدول الأكثر تمدنًا ـ فى فرنسا ، على سبيل المثال ـ إلى أن يتم حل القضية اليهودية على أساس سياسى . والآن ، يحمل اليهود التعساء بذور معاداة السامية إلى إنجلترا ؛ بينما قاموا بالفعل بإدخالها إلى أمريكا .

أعتقد بأننى أتفهم معاداة السامية ، وهى بالفعل حركة بالغة التعقيد . وأنا أنظر إليها من وجهة نظر يهودية ، ولكن دونما كراهية أو خوف . أظن أننى أدرك ما تنطوى عليه معاداة السامية من سخرية سوقية ، وغيرة متبادلة ، وتحيز متوارث ، وتعصب دينى ، ودفاع مزعوم عن النفس . وأرى أن قضية اليهود لم تعد قضية اجتماعية ولا دينية ، حتى وإن كانت فى بعض الأحيان تتخذ هذه الأشكال أو أشكال أخرى . إنها قضية قومية لا يمكن حلها إلا إذا أصبحت قضية سياسية عالمية ، يتم تسويتها فى ظل مجلس يتشاور فيه الأمم المتحضرة .

نحن شعب ـ شعب واحد

لقد حاولنا بصدق فى كل مكان أن ندمج أنفسنا مع الحياة الاجتماعية فى المجتمعات التى نتواجد بها ، وأن نحافظ على معتقدات آبائنا ، ولكن لا يُسمح لنا بذلك . ونحاول بلا طائل أن نكون وطنيين مخلصين ، بالرغم من أن درجة إخلاصنا تصل فى بعض الأحيان إلى أقصى الحدود ، وبلا طائل نقدم التضحيات ذاتها من الممتلكات و الأرواح التى يقدمها نظراؤنا من المواطنين ؛ بلا طائل نسعى إلى رفعة اسم البلد الذى ولدنا به فى العلوم والفنون ، أو لزيادة ثرواته من خلال التجارة والمعاملات التجارية . ففى

البلاد التى عشنا بها لقرون، ما زلنا ننعت بعبارة «الغرباء»، حتى من قبل هؤلاء الذين لم يكن أسلافهم قد أقاموا بعد فى تلك البلاد التى لطالما عانى اليهود فيها.

قد يقرر الأغلبية من هم الغرباء؛ فالأمر برمته، مثله مثل كافة النقاط التى تنشأ فى العلاقات بين الأمم، مسألة قوة. وأنا هنا لا أتنازل عن أى جزء من حقوقنا المكتسبة عندما أدلى بهذا التصريح باسمى كفرد فحسب. فى العالم فى الوقت الحاضر، وكما سيظل على الأرجح إلى أجل غير محدد، تسبق القوة الحق. لذا، فإنه من غير المجدى بالنسبة لنا أن نكون وطنيين مخلصين، مثلما كان الفرنسيون البروتستانت «الهوجونوت» من أتباع كالفين، والذين أجبروا على الهجرة. ألا يمكن أن يدعونا وشأننا فى سلام. . .

ولكن أظن أننا لن نُترك وشأننا فى سلام.

إلا أنه ليس بإمكان القهر والاضطهاد أن يقضيا علينا، فلا توجد أمة على وجه الأرض تغلبت على مثل الصراعات والمعاناة التى خضناها. إن حملات التحريض ضد اليهود لم توقع إلا بالضعفاء منا فحسب؛ أما الأقوياء بيننا فكانوا مخلصين بثبات لجنسهم عندما اندلع الاضطهاد ضدهم. ظهر هذا الموقف جليًا فى الفترة التى تلت تحرير اليهود مباشرة. إن هؤلاء اليهود ممن يتمتعون بتقدم فكرى ومادى قد فقدوا تمامًا مشاعر الانتماء إلى سلالتهم. فحيثما يدوم رخاؤنا السياسى لأى مدة من الزمن، يحدث اندماج بيننا وبين ما يحيط بنا؛ وأظن أن هذا ليس مخزيًا. لذا، فإنه إذا أراد رئيس أى دولة أن يرى سلالة اليهود فى أمته، فعليه أن يؤمن فترات استقرارنا السياسى هناك: ولكن حتى بسمارك ذاته لم يكن ليستطيع القيام بذلك.

ولايزال التحامل القديم علينا قابعًا فى أعماق قلوب الناس، ومن يحتاج إلى أدلة على ذلك، عليه فقط أن يستمع إليهم عندما يتحدثون بصراحة وبساطة؛ فالأمثال والحكايات الخرافية معادية للسامية. الأمة فى كل مكان ما هى إلا طفل كبير يمكن بالتأكيد تثقيفه؛ إلا أن تثقيفه، فى أفضل الظروف، سيستغرق قدرًا كبيرًا من الزمن يمكن فيه، كما ذكرنا سابقًا، أن نتغلب على عقباتنا بوسائل أخرى تفى بالغرض قبل انتهاء عملية التثقيف تلك بوقت طويل.

فانصهار اليهود ـ كما أفهم الانصهار الذى لا يقتصر فقط على المطابقة الخارجية للملابس، والعادات، والتقاليد، واللغة، ولكن أيضًا التشابه فى الشعور والتصرفات ـ يمكن أن يتحقق فقط بتزاوج الأفراد. ولكن الأمر يتطلب شعور الأغلبية بالحاجة إلى التزاوج المختلط، وليس فقط مجرد اعتراف القانون به.

والليبراليون المجريون الذين فرضوا منذ فترة قصيرة تقنين الزواج المختلط قد اقترفوا بهذا خطأ جسيمًا أوضحته إحدى الحالات المبكرة؛ حيث تزوج يهودى معمد [أى أصبح مسيحيّا] من يهودية. وفى الوقت نفسه، أبرز الصراع للحصول على الشكل الحالى للزواج الفوارق بين اليهود والمسيحيين، ومن ثم تسبب فى المزيد من إعاقة الاندماج بين السلالات بدلاً من المساعدة عليه.

أما أولئك الذين تمنوا حقّا اختفاء اليهود من خلال التمازج مع أمم أخرى، فيمكنهم أن يأملوا تحقق ذلك بطريقة واحدة؛ يجب على اليهود أولاً أن يحققوا قوة اقتصادية ضخمة تفى بمساعدتهم على التغلب على الأحكام المسبقة القديمة الممارسة ضدهم. والأرستقراطية خير مثال على ذلك، حيث تضم فى طياتها أضخم عدد نسبى فى الزواج المختلط، حيث كان الامتصاص التدريجى للعائلات اليهودية التى أعادت الرونق لطبقة النبلاء القديمة عن طريق المال. لكن ما الشكل الذى ستتخذه مثل هذه الظاهرة فى الطبقات الوسطى (فاليهود من الطبقة المتوسطة) حيث تتركز القضية اليهودية؟ فالاستحواذ السابق على السلطة قد يكون مرادفًا للسيادة الاقتصادية المزعومة ـ خطأ ـ على اليهود. وإذا كانت السلطة التى يتمتعون بها حاليّا تخلق نوعًا من السخط والغضب الشديدين بين معادى السامية، فما هى الثورات التى سيخلقها مثل هذا النوع من ازدياد السلطة؟ وعليه، فلن تُتخذ أبدًا الخطوة الأولى نحو الامتصاص لما ستتضمنه من خضوع الأغلبية للأقلية المحتقرة حتى الآن، والتى لا تمتلك قوة عسكرية أو إدارية خاصة بها.

ومن ثم، أعتقد أن امتصاص اليهود عن طريق ثرائهم أمر بعيد المنال، وسيوافق على رأيى هذا اليهود فى الدول المعادية للسامية، أما فى الدول الأخرى التى يتمتع اليهود فيها بالراحة، فمن المرجح أنهم سيعترضون بشدة. فإخوتى فى الدين ـ الأكثر سعادة ـ لن يصدقونى حتى يعلمهم اضطهاد اليهود الحقيقة؛ فكلما طالت فترة ركود معاداة

السامية اشتدت قوة اندلاعها . فتسلل اليهود المهاجرين ، منجذبين نحو أرض تبدو لهم آمنة ، وارتقاء السلم الاجتماعى لليهود من أهل البلد ، إنما يتحدان بقوة ليسفرا عن ثورة عارمة . وليس هناك ما هو أوضح من هذه النهاية المنطقية .

ونظرًا لأننى توصلت إلى هذه النتيجة دون اكتراث بأى شىء عدا البحث عن الحقيقة ، فمن المرجح أن يغالطنى ويعترض على اليهود ممن يتمتعون برغد العيش . وحيث إن المصالح الخاصة فقط هى ما يخشى عليها مالكوها ويشعرون حيالها بالقلق والوجل ، فيمكن إذن تجاهلها ، حيث هموم الفقراء ومشكلاتهم هى الأهم . وإن كنت أتمنى من البداية أن أحول دون وقوع أى سوء فهم ، بخاصة الفكرة الخاطئة أن مشروعى ، إن أصبح قيد التنفيذ ، قد يضر بأى حال من الأحوال ما يمتلكه اليهود حاليًا ، ولسوف أشرح تفصيلاً كل ما له علاقة بحقوق الملكية .

أما إذا ظل مخططى هذا مجرد قطعة أدبية ، فسيبقى الوضع على ما هو عليه . وقد يبدو منطقيّا إذا ما أثير اعتراض يقول بأنى أساعد معادين السامية عندما أقول إننا أمة واحدة ؛ من حيث إننى بذلك أعرقل انصهار اليهود فى تلك المجتمعات وأعرضه للخطر ، فيما كان على وشك أن يتحقق ، كما لو كان بإمكان أى كاتب أعزل إعاقة أى شىء أو تعريضه للخطر .

سيثار هذا الاعتراض بصفة خاصة فى فرنسا ، ومن المرجح أن يُثار فى عدد من الدول الأخرى ، إلا أننى سأبدأ بالرد على يهود فرنسا ؛ لأنهم يقدمون خير مثال على وجهة نظرى .

بصرف النظر عن مدى تقديسى لمفهوم الهوية ـ الهوية القوية لدى رجال الدولة ، والمخترعين ، والفنانين ، والفلاسفة ، والقادة ، بالإضافة إلى الهوية الجماعية لجماعة تاريخية من البشر والتى نطلق عليها اسم «أمة» ، فبقدر ما أقدر الهوية ، إلا أننى لا أندم على زوالها . فكل من يستطيع ، أو يرغب ، أو يجب عليه أن يهلك ، . . فليهلك! أما القومية المميزة لليهود فلا يمكن ولا ينبغى ولا يجب تدميرها . لا يمكن تدميرها ؛ لأن أعداءها الخارجيين يعملون على تقويتها ، فلا يمكن القضاء عليها ؛ ويتضح هذا من خلال ألفين سنة من التعذيب المروع . لا يمكن تدميرها ، وأنا ـ كواحد من أبناء سلالة تضم عددا لا حصر له من اليهود الذين رفضوا الاستسلام ـ

أحاول إثبات ذلك مرة أخرى فى هذا الكتيب. قد تذبل وتسقط أغصان كاملة من الشجرة اليهودية، أما جذعها فباق.

بناءً عليه، فإنه فى حالة قيام أى من يهود فرنسا بالاحتجاج على هذا المخطط استناداً إلى فكرة «الانصهار فى المجتمع» فإن ردى ببساطة هو: أن الأمر برمته لا يعنيهم على الإطلاق. فهم كيهود فرنسا على العين والرأس، أما هذه المسألة فهى خاصة باليهود وحدهم.

مما لا شك فيه أن اقتراحى بالاتجاه نحو تأسيس دولة اليهود لن يحيق الأذى بيهود فرنسا أكثر من أى من «المنصهرين» فى الدول الأخرى، بل على العكس، سيكون ذلك فى صالحهم على نحو مميز، حيث لن يتعرضوا للإزعاج مرة أخرى فى «وظائفهم اللونية» كما يصفها دارون، بل سيكون بمقدورهم الامتزاج بسلام، لأن حينها سيكون قد تم التخلص من معاداة السامية للأبد. وبالطبع سيحسب لهم انصهارهم إلى أبعد الحدود إذا مكثوا حيثما كانوا بعد أن تصبح دولة اليهود الجديدة، بمؤسستها العليا، واقعًا ملموسًا.

بل وسيستفيد «المنصهرون» حتى أكثر من المواطنين المسيحيين بمغادرة اليهود المؤمنين، حيث سيتخلصون بذلك من منافسة مزعجة ومقلقة وحتى مع طبقة العمال اليهودية المدفوعة بالفقر والضغط السياسى من مكان إلى مكان ومن أرض إلى أخرى، حيث ستستقر طبقة العمال التائهة تلك. ومن ثم، يستطيع العديد من المواطنين المسيحيين - ممن نطلق عليهم اسم «معادين السامية» أن يناهضوا فكرة هجرة اليهود الأجانب [إلى بلادهم]. ليس باستطاعة المواطنين اليهود القيام بذلك على الرغم من تأثير ذلك المباشر عليهم أكثر بكثير؛ فهم يشعرون فى المقام الأول بالمنافسة الشرسة بين الأفراد الذين يعملون فى أفرع مماثلة من الصناعة، ممن يقومون، بالإضافة إلى ذلك، بجلب معاداة السامية إلى الأماكن الخالية منها، أو زيادتها فى أماكن تواجدها. وقد عبر «المنصهرون» عن هذا الاستياء الدفين من خلال مشروعات «محبى البشرية»، حيث نظموا مجتمعات هجرة لليهود المشتتين، إلا أن هناك وجهًا آخر لهذه الصورة التى ستتحول إلى مشهد هزلى ما لم تتعامل مع آدميين. فبعض من هذه المؤسسات الخيرية تم تأسيسها ضد وليس من أجل اليهود المضطهدين، فكان تأسيسها بهدف

التخلص من هذه المخلوقات التعيسة فى أسرع وقت وإلى أبعد مكان. وهكذا، بالفحص المتأنى، يتضح أن العديد ممن يدعون صداقة اليهود ما هم إلا معادون للسامية من أصول يهودية، متخفون فى رداء محبى الإنسانية.

ولكن المحاولات الاستعمارية التى قام بها رجال كرماء بحق، وإن كانت محاولات شيقة، إلا أنها لم تسفر عن أى نجاح حتى الآن. ولا أعتقد أنهم قاموا بذلك بدافع التسلية، أو أنهم شاركوا فى تهجير اليهود الفقراء كما يشارك المرء فى سباق الخيل، فالقضية أشد خطورة ومأساوية من أن تُعامل على هذا النحو. بيد أن المثير فى هذه المحاولات هى أنها صورت على نطاق ضيق المبشرين الأوائل بفكرة دولة اليهود، وحتى يمكن الاستفادة من أخطائهم فى اكتساب خبرة تساعدنا على تطبيق الفكرة بنجاح على نطاق أوسع. ومما لا شك فيه أنهم قد تسببوا أيضًا فى بعض الأذى، أقلها هو نقل المعادين للسامية إلى مناطق جديدة، وهى النتيجة الحتمية لمثل هذه التصفية الزائفة. والأسوأ من ذلك هو حقيقة أن مثل هذه النتائج غير المرضية تميل إلى إلقاء حتى العقلاء فى براثن الارتياب. بينما مناقشة الأشياء التى تبدو غير عملية أو مستحيلة من شأنها أن تزيل ذلك الارتياب عن عقولهم، وما يبدو غير عملى ومستحيل تنفيذه على النطاق المحدود، قد لا يكون كذلك على النطاق الأوسع. فمشروع صغير قد يسفر عن خسارة فى الظروف نفسها التى قد يربح فيها مشروع كبير. فإن كان الجدول لا يتحمل إبحار القوارب، فالنهر الذى يصب فيه الجدول يحمل سفنا حديدية ضخمة.

لا يوجد إنسان غنى أو قوى بما فيه الكفاية لنقل أمة من مكان إلى آخر؛ فقط الفكرة تستطيع ذلك، ولدى فكرة إقامة دولة اليهود القوة المطلوبة لتحقيق ذلك. فتلك الفكرة هى حلم اليهود الأول منذ فجر تاريخهم، ولكم ترددت على ألسنتهم عبارة «العام المقبل فى القدس». أما اليوم، فالقضية هى إظهار أنه فى الإمكان تحويل هذا الحلم إلى واقع ملموس.

ولكى يتحقق هذا، يجب أولاً التخلص من العديد من الأفكار القديمة، البالية، المربكة، والمحدودة من عقول الأفراد. فقد تتخيل بعض العقول البليدة أن ذلك ما هو إلا هجرة من منطقة متحضرة إلى الصحراء. إلا أن الأمر ليس كذلك، فسيتم تنفيذ الفكرة فى قلب الحضارة. لن نهبط إلى مستوى أدنى، بل سنرتفع إلى مرتبة أعلى؛ لن

نتخذ من الأكواخ الطينية سكنًا لنا، بل سنبنى منازل أكثر حداثة وبهاءً، وسنمتلكها فى أمان. لن نفقد ممتلكتنا المكتسبة، بل سنثبتها، ولن نتنازل عن حقوقنا التى اكتسبناها عن حق إلا من أجل حقوق أفضل. لن نضحى بعاداتنا الغالية علينا، بل سنجدها مرة أخرى. لن نترك منزلنا القديم إلا بعد أن يتم تجهيز منزلنا الجديد. سيرحل فقط من هم على يقين أنهم سوف يحسنون من مستواهم. ليذهب اليائسون أولاً، ثم الفقراء، ثم ميسورو الحال، ثم الأغنياء فى آخر المطاف. وعلى من يذهبون أولاً أن يرتقوا بمستواهم الاجتماعى بشكل مساو للذين سرعان ما سيلحق بهم ممثلوهم. ومن ثم سيصبح «الخروج» ارتقاء فى المستوى الاجتماعى فى الوقت ذاته.

لن يكتنف مغادرة اليهود أى اختلال اقتصادى أو أزمات اقتصادية أو سياسية أو انتهاكات، فى الواقع ستشهد الدول التى سيتركها اليهود عهدًا جديدًا من الرخاء، حيث سينزح المواطنون المسيحيون إلى المناطق التى تركها اليهود فى شكل هجرة داخلية. وسيكون التدفق الخارجى تدريجيًا، دون أى إزعاج، ولسوف تضع الحركة الأولى نهاية لمعاداة السامية. سيغادر اليهود كأصدقاء موقرين، وفى حالة عودة بعضهم، سيتم الترحيب بهم و التعامل معهم بالطريقة ذاتها التى تتبعها الأمم المتحضرة مع كل الزوار الأجانب. لن يكون هناك أى تشابه بين مغادرة اليهود والفرار، بل ستكون حركة منظمة تحت سيطرة الرأى العام؛ فالحركة لن تبدأ فقط بالإذعان الكامل للقانون، بل ولن تتحقق إلا بالتعاون الودى من قبل الحكومات المهتمة والتى ستجنى منافع عدة من ورائها.

وسيتحقق ضمان نزاهة الفكرة وسرعة تنفيذها من خلال تأسيس هيئة اعتبارية أو شركة يطلق عليها اسم «مجتمع اليهود». وبالإضافة إليها، سيكون هناك شركة يهودية تعمل كجهاز اقتصادى منتج.

أى فرد يحاول أخذ تنفيذ هذه المهمة الضخمة على عاتقه بمفرده هو إما محتال أو مجنون. وستضمن الهوية الشخصية لأعضاء الشركة نزاهتها، بينما سيؤمن استقرارها رأس المال الكافى.

وهذه الملاحظات الأولية ما هى إلا رد سريع على الكم الهائل من الاعتراضات التى قطعًا تثيرها كلمتى «دولة يهودية». وعليه، ومن الآن فصاعداً فستقدم بتمهل فى الرد

على أية اعتراضات أخرى، وفى التوضيح التفصيلى لما تم الإشارة إليه حتى الآن، وسنحاول فى هذا الكتيب أن نتجنب تحويله إلى سرد ممل، ففصول قصيرة من الحكمة الموجزة ستفى بالغرض.

فإذا أردت إحلال مبنى قديم بآخر جديد، فسيتعين علىّ الهدم قبل البناء، ولسوف أتبع هذا التتابع الطبيعى. ففى الجزء الأول العام، سأشرح أفكارى وأزيل كافة التحاملات، وأحدد الظروف السياسية والاقتصادية الهامة، وأطور الخطة.

أما فى الجزء الخاص، والمقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية، فسأشرح كيفية تنفيذها. وهذه الأقسام الثلاثة هى: **الشركة اليهودية، والمجموعات المحلية، وجمعية اليهود.**

يجب تأسيس المجتمع أولاً والشركة أخيرًا، لكن عند التوضيح يفضل العكس، حيث سيكون الوضع المالى لهذا المشروع موضع تساؤل، ومن ثم، يجب أولاً تبديد أى شك حول هذه النقطة.

أما فى الخاتمة، فسأحاول الرد على أية اعتراضات أخرى قد تطرأ. وأتمنى من قرائى اليهود أن يتبعونى بتأن حتى النهاية. بالطبع سيبنى البعض اعتراضه على تتابع مختلف عن التتابع المختار للتفنيد، وعلى كل من يشعر أن شكوكه قد تبددت أن يعلن إخلاصه لهذه القضية.

على الرغم من أننى أتحدث باسم المنطق، إلا أننى على دراية كاملة أن المنطق وحده غير كاف، فالسجناء القدامى لا يتركون زنزاناتهم طواعية. ولسوف نرى ما إذا كان الشباب الذين نحتاجهم يأتمرون بأمرنا ـ الشباب الذين عليهم الاستفادة من خبرات القدامى، ويحملونهم على أكتافهم إلى الأمام، ويحولون الدوافع العقلية إلى حماسة متقدة.

* * *

الفصـل الثانى

المسألة اليهودية

لا أحد يستطيع إنكار خطورة وضع اليهود، فأينما عاشوا بأعداد ملحوظة، يتعرضوا للاضطهاد بشكل أو بآخر، ويصبح حق مساواتهم بغيرهم أمام القانون، والذى تكفله التشريعات، مادة معطلة من الناحية العملية، بل ويتم حرمانهم حتى من المناصب العليا نسبيًا، سواء فى الجيش أو فى المؤسسات العامة أو الخاصة، وتجرى المحاولات لطردهم من مجال الأعمال التجارية أيضًا: «لا تشترى من اليهود!».

وبصفة يومية، تتزايد مهاجمة اليهود فى البرلمان، والمجالس، والصحافة، والمنابر، وفى الشوارع، وفى الرحلات - فمثلا يتم استبعادهم من فنادق بعينها - وحتى فى أماكن الاستجمام. وتتنوع أشكال الاضطهاد حسب البلدان والسياقات الاجتماعية التى ينمو فيها؛ ففى روسيا، كانت المكوس تفرض على القرى اليهودية؛ وفى رومانيا، تعرض عدد قليل منهم للإعدام؛ وفى ألمانيا، كانوا يتعرضون للضرب المبرح من وقت لآخر؛ أما فى النمسا، مارس المعادون للسامية الإرهاب على كافة مناحى الحياة العامة؛ وفى الجزائر، كان هناك المحرضون الذين يتجولون من مكان لمكان للتحريض ضد اليهود؛ أما فى باريس، فكانوا يمنعون من الدخول إلى ما يُعرف بـ «نخبة الشرائح الاجتماعية» ويتم استبعادهم من النوادى. ظلال معاداة السامية متعددة، وهذه ليست محاولة لسرد قائمة حزينة بالمصاعب التى مر بها اليهود.

أنا لا أنتوى إثارة مشاعر التعاطف بالنيابة عنا نحن اليهود، فذلك عمل أحمق ولا جدوى منه وغير مشرف على الإطلاق. ولسوف أكتفى بتوجيه الأسئلة التالية إلى اليهود: أليس صحيحًا أنه فى البلدان التى نعيش فيها بأعداد ملحوظة، أصبح وضع المحامين والأطباء والفنيين والمعلمين والموظفين اليهود من جميع الأوصاف غير محتمل؟ أليس صحيحًا أن الطبقات الوسطى اليهودية يتهددها خطر شديد؟ أليس من الخطير أن العامة يتم تحريضهم ضد الأغنياء منا؟ أليس صحيحًا أن الفقير منا يعانى بشكل أكثر كثيرًا من أى شخص آخر ينتمى لطبقة البروليتاريا؟ أظن أن هذه الضغوط

الخارجية من الوضوح بحيث يسهل الوقوف عليها فى كل مكان، فهى تسبب القلق لطبقاتنا العليا اقتصاديًا، وتسبب مخاوف دائمة وخطيرة لطبقاتنا الوسطى، وتتسبب فى يأس تام بين صفوف طبقاتنا الدنيا.

فى الواقع، يبدو أن كل الأشياء تمضى فى الاتجاه نفسه نحو محصلة واحدة تُعبر عنها بوضوح عبارة برلين التقليدية: «يودين راوس ـ Juden Raus» (فليخرج اليهود!).

والآن سأضع السؤال فى أقصر صيغة ممكنة: هل «سنخرج» الآن؟ وإلى أين؟

أو، بصيغة أخرى، هل سنبقى رغم ذلك؟ وإلى متى؟

دعونا أولاً نفرغ من مسألة البقاء حيث نحن، هل بوسعنا أن نأمل فى أيام أفضل؟ هل يمكننا أن نحافظ على صبرنا؟ هل يمكننا الانتظار فى استكانة المطيع حتى تتحول قلوب أمراء وشعوب هذه الأرض إلى قلوب أكثر رحمة بنا؟ أقول إنه لا أمل فى تغير المشاعر الحالية. ولم؟ لأنه حتى وإن كنا قريبين إلى قلوب الأمراء بالقدر نفسه الذى عليه رعاياهم الآخرين، فليس بمقدورهم حمايتنا، بل سيذكون الكراهية الشعبية نحونا من خلال إظهار بالغ العطف تجاهنا. وما أعنيه بـ «بالغ العطف» هو فى الحقيقة أقل مما يطالب به أى مواطن عادى أو أى عرق آخر كحق من الحقوق. فكافة الشعوب التى يعيش اليهود بين ظهرانيها هى شعوب معادية للسامية فى السر أو فى العلانية.

إن الأشخاص العاديين ليس لديهم، ولا يمكن أن يكون لديهم حقًا، إلمام بالتاريخ، فهم لا يدركون أن آثام العصور الوسطى إنما تُرتكب مرة أخرى فى بلدان أوروبا. فنحن صنيعة الجيتو، ولقد حققنا الصدارة فى مجال الأموال لأن الظروف فى القرون الوسطى دفعتنا إلى ذلك. والعملية نفسها تتكرر فى الوقت الحالى، فمجدداً يتم الدفع بنا إلى مجال الأموال، هذه المرة باتجاه سوق الأوراق المالية، لما نلاقيه من صد عن الأفرع الأخرى للنشاط الاقتصادى. ثم نظراً لعملنا فى سوق الأوراق المالية نتعرض مجدداً للازدراء. وفى الوقت نفسه، نستمر فى إنتاج عدد وافر من العقول المتوسطة التى لا تجد منفذاً، مما يعرض وضعنا الاجتماعى للخطر، تماماً مثلما تفعل ثروتنا المتزايدة. كما أن اليهود المتعلمين معدومى الثروات سرعان ما يتحولون إلى

الاشتراكية . لذا ، فمن المؤكد أننا سنعانى بشدة من الصراع بين الطبقات ، لأننا نقف فى الموقع الأكثر انكشافا فى كل من معسكرى الاشتراكيين والرأسماليين .

المحاولات السابقة لإيجاد حل

إن الوسائل الاصطناعية التى جرى توظيفها حتى الآن للتغلب على المشاكل التى تواجه اليهود كانت إما صغيرة للغاية ـ مثل محاولات الاستيطان ـ أو كانت محاولات لتحويل اليهود إلى مزارعين فى مواطنهم الحالية .

ما الذى يمكن أن يحققه نقل آلاف قليلة من اليهود إلى بلد آخر؟ إما أن يحيوا فى شقاء بدءا منذ اللحظة الأولى ، أو تزدهر أحوالهم ، ثم يتسبب ازدهار أحوالهم فى خلق مناخ من العداء للسامية . ولقد ناقشنا بالفعل هذه المحاولات الرامية إلى نقل فقراء اليهود إلى الأحياء الجديدة . ومن الواضح أن هذا النقل غير كاف ولا طائل منه ، فهو لا يحقق الغاية منه ، بل ويطيل أمد المشكلة ويؤجل حلها ، بل وربما يزيد من صعوبة المشكلات .

من يحاول تحويل اليهودى إلى مزارع فهو بالتأكيد يرتكب خطأ فادحًا ، فالفلاح ينتمى لفئة تاريخية ، كما تثبت ذلك ملابسه التى يلبسها فى بعض البلدان منذ قرون ، وكما تثبت أدواته التى تطابق ما كان يستعمله آباؤه الأولون ؛ فمحراثه لم يتغير ، وما زال يحمل البذور فى مئزره ، ويقطع الحشائش باستخدام المنجل التقليدى ، ويدرس القمح بالدراسة التى أكل الدهر عليها وشرب . ولكننا نعلم أن ذلك كله يمكن القيام به باستخدام الآلات ، فمسألة الزراعة ما هى إلا مسألة آلات . ولا بد أن أمريكا سوف تغزو أوروبا بالكيفية نفسها التى تبتلع بها حيازات الأراضى الكبيرة الحيازات الأصغر . لذا ، فالمزارع أشبه بنوع فى طريقه إلى الانقراض . وحيثما يتم حفظه بطريقة اصطناعية ، فإن ذلك يتم بدافع من المصالح السياسية التى يخدمها المزارعون . لذا فمن العبث ، بل من المستحيل ، إعداد مزارعين فى العصر الحديث على الطراز القديم ، فلا أحد يملك الثراء ولا القوة القادرة على جعل الحضارة تخطو خطوة واحدة للخلف ، ومجرد الحفاظ على المؤسسات يعد عملية صعبة إلى الحد الذى يتطلب تفعيل كافة الإجراءات التعسفية لبلد يتم حكمه بشكل استبدادى .

فهل سنكافئ اليهود الذين يتمتعون بالذكاء بالرغبة فى جعلهم مزارعين من الطراز القديم؟ إذًا ربما يمكن أن يقول أحدهم لليهود: «هاكم الأقواس: اذهبوا إلى الحرب الآن» ماذا؟ بأقواس، بينما الآخرون معهم المدافع الرشاشة والبنادق طويلة المدى؟ فى مثل هذه الظروف لا عجب أن لم يتحمس اليهود عندما يحاول الآخرون تحويلهم إلى مزارعين. القوس فى حد ذاته سلاح جميل يوحى إلىّ بمشاعر العزاء عندما يكون لدى وقت لها، ولكنه الآن ينتمى بالقطع إلى أحد المتاحف.

فى الوقت الحالى، هناك بالتأكيد أحياء يخرج اليهود اليائسون إليها، أو على أية حال، يريدون الخروج إليها ويفلحون الأرض، ولكن نظرة صغيرة إلى تلك الأحياء ـ مثل زمام هيسه بألمانيا، وبعض الأقاليم فى روسيا ـ ستوضح أن هذه الأحياء هى البؤر الأساسية لمعاداة السامية.

أما بالنسبة لمصلحى العالم، الذين يرسلون اليهود إلى المحراث، فهم ينسون شخصا مهما للغاية لديه الكثير ليقوله بخصوص هذه القضية، وهذا الشخص هو خبير الزراعة، ولديه أيضًا كامل الحق فيما يقول. فقد اجتمعت الضريبة على الأرض، مع المخاطر المتعلقة بالمحاصيل، وضغوط كبار ملاك الأراضى الذين يخفضون أجر العمال، والمنافسة الأمريكية على وجه الخصوص، لتجعل حياته أكثر صعوبة. كما أنه لا يمكن ترك الرسوم الجمركية المفروضة على القمح تزداد بدون قيود، ولا يمكن ترك الصانع ليموت جوعًا، فتأثيره السياسى فى الواقع آخذ فى الازدياد، ومن ثم لابد وأن يؤخذ فى الاعتبار أكثر من ذلك.

بالطبع كل هذه الصعوبات معروفة جيدًا، لذا اكتفيت بالإشارة إليها على نحو سريع. أردت فقط أن أوضح كيف كانت المحاولات السابقة عديمة الجدوى فى حل القضية اليهودية، رغم أن معظمها كان حسن النية. فليس من شأن تحويل المسار ولا الإحباط الصناعى لشريحة المثقفين من طبقة البروليتاريا الخاصة بنا أن يتغلبا على هذه الصعوبات. وتم بالفعل معالجة الوسيلة المحيدة المفترضة لانصهار اليهود فى المجتمعات التى يعيشون بها.

لا يمكن التغلب على معاداة السامية بأى من هذه الوسائل، فلا يمكن لهذه المعاداة أن تموت طالما لم يتم إزالة أسبابها، فهل هى قابلة للإزالة بحق؟

أسباب معاداة السامية

لن نتطرق مجدداً لتلك الأسباب الناجمة عن المزاجية، والتحامل، وضيق أفق الآخرين، بل سنقتصر على الأسباب السياسية والاقتصادية، فلا يجب الخلط بين معاداة السامية في العصر الحديث والاضطهاد الديني لليهود في العصور السابقة. ورغم أن معاداة السامية تأخذ شكل التحامل الديني في بعض البلدان، إلا أن التيار الرئيسي في الحركة العدائية تجاه اليهود قد تغير في الوقت الحالي. وفي البلدان الرئيسية التي تسود فيها معاداة السامية، يحدث ذلك نتيجة لتحرير اليهود. وعندما أدركت الأمم المتحضرة لاإنسانية التشريعات التي تميز ضد اليهود، ومن ثم أقدمت على تحريرنا، كان هذا التحرير متأخراً جداً بالنسبة لنا. لم يعد من الممكن التغلب على عجزنا في أوطاننا القديمة، فالغريب أننا إبان مكوثنا في الجيتو قد تحولنا إلى برجوازيين، وفور خروجنا منه دخلنا في منافسة شرسة مع الطبقات الوسطى، ولذلك فإن تحريرنا قد أقحمنا داخل دائرة الطبقة الوسطى هذه، وأصبح لزامًا علينا تحمل الضغط المزدوج؛ من الداخل والخارج، فالطبقة البرجوازية المسيحية لن يكون لديها مانع من أن ترانا قرباناً للاشتراكية، رغم أن هذا لن يحسن الأمور كثيراً.

في الوقت نفسه، لا يمكن إلغاء المساواة لليهود أمام القانون بعد أن تم تشريعها، ليس فقط لأن سحبها سيتعارض مع روح عصرنا الحالي، ولكن أيضًا لأن ذلك سيدفع اليهود، أغنياء وفقراء على السواء، إلى الانضمام لصفوف الأحزاب الهدامة، ومن ثم لا يوجد بالفعل شيء مؤثر يمكن عمله لإيقاع الضرر بنا. في الماضي، كان يتم مصادرة مجوهراتنا، أما الآن فكيف يمكن أن يتم احتجاز ممتلكاتنا المنقولة؟ فهي أوراق مطبوعة مودعة في خزائن في مكان أو آخر حول العالم، وربما في صناديق المسيحيين. بالطبع يمكن الوصول إلى الأسهم والسندات في السكك الحديدية والمصارف والمعاملات الصناعية من كافة الأوصاف عن طريق فرض الضرائب، وعندما يتم تفعيل ضرائب الدخل التصاعدية يمكن في النهاية الاستحواذ على كافة ممتلكاتنا المنقولة. ولكن كل هذه الجهود لا يمكن توجيهها ضد اليهود فحسب، وأينما يتم فرضها سينجم عنه مباشرة أزمات اقتصادية خطيرة لن تقتصر فقط على اليهود بأي حال من الأحوال، رغم كونهم أول المتضررين. وقد تسببت استحالة الوصول إلى اليهود في تغذية مشاعر الكراهية تجاههم وجعلها أكثر مرارة، فتزداد معاداة السامية يوما بعد آخر، وساعة بعد

أخرى بين الأمم؛ حقيقة الأمر أنه من المتوقع أن تزداد نظرًا لأن أسباب نموها ما زالت كما هى ولم يتم القضاء عليها. ويعد السبب البعيد لها هو فقداننا القدرة على الانصهار ضمن الشعوب التى كنا نعيش بينها فى العصور الوسطى، بينما السبب المباشر هو إنتاجنا المفرط لعقول متوسطة لا تستطيع التوصل إلى مخرج لا إلى أعلى أو إلى أسفل - بمعنى أنه لا يوجد مخرج فى أى من الاتجاهين. فعندما نغوص فى الحضيض، نصبح ثوارًا من طبقة البروليتاريا، وأتباع الأحزاب الثورية؛ بينما إذا صعد نجمنا، تصعد معه سلطتنا المالية الرهيبة.

تأثيرات معاداة السامية

ليس من شأن الظلم الذى نتعرض له أن يجعل منا أناسًا أفضل، فنحن لسنا أفضل من البشر العاديين فى ذلك ولو بمثقال ذرة. صحيح أننا لا نحب أعداءنا، ولكن من يريد لومنا على فعل ذلك، فليلم نفسه أولاً، فالظلم بطبيعته يخلق مشاعر الكراهية ضد الظالم، وتزيد كراهيتنا لهم من الضغوط التى تمارس ضدنا. من المستحيل إذن الهروب من هذه الدائرة المفرغة.

سيقول بعض الحالمين من أصحاب القلوب الطيبة: «لا! لا! ليس هذا بمستحيل! بل ممكن عن طريق الكمال الإنسانى المطلق».

هل من الضرورى الإشارة إلى الحماقة العاطفية المفرطة لوجهة النظر هذه؟ فمن يأمل فى تحسين أحواله مستندًا إلى الكمال الإنسانى المطلق، فهو بالتأكيد يستند إلى المدينة الفاضلة!

لقد أشرت من قبل إلى مسألة «انصهارنا»، ولا أرغب ولو للحظة فى أن يبدو كلامى وكأنه يتضمن أنى أرغب فى هذه الغاية. فشخصيتنا القومية معروفة للغاية عبر التاريخ، ورغم كل الإذلال الذى تعرضنا له، فهى تظل رائعة إلى الحد الذى يجعل الآخرين يرغبون فى محوها. قد نستطيع الاندماج تمامًا مع الأعراق التى تحيط بنا، إذا كان هذا سيؤدى إلى تركنا فى سلام لفترة جيلين، ولكن هذا لن يحدث. فهم قد ينجحون فى التسامح معنا لفترة قصيرة، ولكن سرعان ما يندلع عداؤهم لنا من جديد مرات ومرات. إن العالم الآن يثيره ازدهار أحوالنا بشكل أو بآخر، فلقرون طويلة

اعتاد على اعتبارنا الأكثر استحقاقًا للازدراء بين الفقراء المدقعين . وبسبب جهل هذا العالم وضيق أفقه ، فقد فشل فى إدراك أن هذا الازدهار يضعف من يهوديتنا ويمحو خصوصياتنا ، وأن الضغوط فقط هى ما يجعلنا نعود إلى جذورنا مرة أخرى ، والكراهية التى تحيط بنا من كل جانب هى فقط ما يجعلنا غرباء مرة أخرى .

لذلك ، شئنا أم أبينا ، فنحن الآن ، وسنظل أبدًا ، جماعة تاريخية لها خصائص شائعة بيننا جميعًا لا يمكن إغفالها .

نحن شعب واحد ، هكذا جعلنا أعداؤنا رغم إرادتنا ، مثلما يحدث مرارًا وتكرارًا عبر التاريخ . ويربطنا الشقاء بعضنا ببعض ، وما أن نتوحد حتى ندرك قوتنا على نحو مفاجئ . نعم ، لدينا القوة الكافية لإنشاء دولة ، بل ودولة نموذجية ، فنحن نملك كافة الموارد البشرية والمادية اللازمة للوصول لهذا الغرض .

لذلك ، فهذا هو المكان الملائم لتقديم تقرير مفصل عما أصطلح تقريبًا على تسميته بـ «المواد البشرية» ، ولكن لن يتم تقديره حق قدره حتى يجرى وضع الخطوط العريضة للخطة التى يعتمد عليها كل شىء آخر .

الخطة

الخطة بأكملها بسيطة من حيث الجوهر ، وهكذا يجب أن تكون إذا ما أردنا بها أن تكون خطة شاملة .

فلنُمنح سيادة على جزء من العالم كبير بما يكفى للوفاء بالمتطلبات العادلة لأمة ما ، ويمكننا نحن تدبر الباقى .

إن تأسيس دولة جديدة ليس بالأمر السخيف أو المستحيل ، فقد شاهدنا خلال حياتنا أحوال الأمم التى لم تكن حتى من أعضاء الطبقة الوسطى ، بل كانت أفقر من ذلك ، وأقل فى التعليم ، وبالتالى أضعف منا . وستحرص حكومات الدول التى أصابتها البلايا بسبب معاداة السامية على مساعدتنا لنحصل على السيادة التى نسعى إليها .

سيتم تنفيذ هذه الخطة البسيطة من حيث التصميم ، والمعقدة من حيث التنفيذ ، من خلال وكالتين : جمعية اليهود والشركة اليهودية .

ستقوم جمعية اليهود بالعمل الإعدادى فى ميادين العلم والسياسة، ثم تتولى الشركة اليهودية تنفيذهما بشكل عملى فيما بعد.

ستصبح الشركة اليهودية وكيل تصفية فوائد الأعمال التجارية لليهود المغادرين، كما ستقوم بتنظيم التجارة والأعمال التجارية فى الدولة الجديدة.

ولا يجب أن نتخيل أن رحيل اليهود سيكون أمراً مفاجئًا، بل تدريجيّا، ومتواصلاً، وسيستمر لعدة عقود، حيث سيرحل الأكثر فقراً أولاً لزراعة الأرض. ووفقًا لخطة يتم وضعها مسبقًا، سيقوم هؤلاء الفقراء بإنشاء الطرق، والكبارى، والسكك الحديدية، وأجهزة التلغراف، وتنظيم الأنهار، وبناء المساكن الخاصة بهم. سيخلق عملهم هذا تجارة، وستخلق هذه التجارة أسواقًا، وستجذب الأسواق مستعمرين جدد، حيث سيذهبون طواعية على نفقتهم الخاصة ومتحملين للمخاطر التى ستواجههم. وما يبذل على هذه الأرض من العمل سيعمل على رفع قيمتها، وسرعان ما سيدرك اليهود أن آفاقًا جديدة ودائمة يتم فتحها هنا لمن تجنح أرواحهم نحو المشروعات؛ الأمر الذى لم يقابل حتى الآن إلا بالكراهية والتنديد فقط.

إذا كنا نرغب فى تأسيس دولة الآن، فلسنا مضطرين إلى فعل ذلك بالطريقة التى كانت هى الطريقة الوحيدة المتاحة من ألف عام. فمن الحماقة أن نعود إلى مراحل قديمة من الحضارة، كما يريد أن يفعل معظم الصهاينة. لنفترض على سبيل المثال أننا أرغمنا على تطهير الدولة من الوحوش البرية، لا يجب أن نقوم بالمهمة بأسلوب الأوروبيين فى القرن الخامس؛ لن نحمل حربة ورمحًا ونخرج فرادى لنطارد الدببة؛ بل سنقوم بتنظيم فريق صيد كبير ونشط، ونسوق الحيوانات معًا، ونلقى قنبلة متفجرة بين هذه الحيوانات.

إذا رغبنا فى القيام بعمليات بناء، فلن نقوم بزرع العديد من الدعامات والركائز على شاطئ البحيرة، بل يجب علينا أن نبنى كما يبنى الرجال الآن، بل وسنبنى بنمط واضح وأكثر فخامة عما كان يُستخدم من قبل، لأننا نمتلك الآن الوسائل التى لم يكن هؤلاء يمتلكونها من قبل.

وبشكل تدريجى سيلحق المهاجرون من الدرجة الاقتصادية الأعلى بالمهاجرين الذين سبقوهم ممن يحتلون أدنى درجات السلم الاقتصادى، حيث سيذهب أولاً

هؤلاء الذين يعيشون حياة بائسة. وسيعمل على قيادة هؤلاء مثقفو الطبقة الوسطى الذين ينتجهم مجتمعنا اليهودى بأعداد كبيرة، والمضطهدون فى كل مكان.

وسيفتح هذا الكتيب مناقشة عامة حول القضية اليهودية، ولكن ذلك لا يعنى أن لن يكون هناك تصويت عليها، فذلك كفيل بأن يقضى على القضية من مبدئها، وعلى المنشقين أن يتذكروا أن الانتماء أو المعارضة هو أمر اختيارى، ومن لم يأت معنا سيبقى خلفنا.

فليصطف كل من يريد الانضمام إلينا خلف رايتنا، ولنناضل من أجل قضيتنا بالصوت والقلم والعمل.

إن هؤلاء اليهود الذين يوافقون على فكرتنا بإنشاء دولة سيقومون بإلحاق أنفسهم بالجمعية، والتى سيكون مخول لها سلطة التشاور والتعامل مع الحكومات باسم شعبنا، ومن ثم فإنه فى علاقاتها مع الحكومات، سيتم الاعتراف بالجمعية بوصفها قوة مؤسسة لدولة، وسيعمل هذا الاعتراف على تأسيس الدولة بشكل عملى.

وما أن تقوم القوى بإعلان رغبتها فى إقرار سيادتنا على قطعة محايدة من الأرض، حتى تدخل الجمعية فى مفاوضات حول امتلاك هذه الأرض. وهنا نأخذ فى عين الاعتبار منطقتين، هما: فلسطين والأرجنتين، وقد أجريت تجارب هامة فى مجال الاستعمار فى هاتين الدولتين، بالرغم من أنها قامت على المبدأ الخاطئ للتسلل التدريجى لليهود. فمثل هذا التسلل محكوم عليه بالفشل، فهو يستمر حتى تحين اللحظة الحتمية التى يشعر فيها الشعب الأصلى بأنه مهدد، ومن ثم يجبر حكومته على التحرك لوقف المزيد من تدفق اليهود. وعليه، فإن الهجرة تعتبر عديمة الفائدة إذا لم يكن لدينا الحق السيادى فى الاستمرار فيها.

وستتولى جمعية اليهود التعامل مع الملاّك الحاليين للأرض، واضعة نفسها تحت حماية القوى الأوروبية إذا أثبتوا تأييدهم لهذه الخطة. بوسعنا أن نعرض على المالكين الحاليين للأرض مزايا عديدة، وستتحمل جزءاً من الدين العام، ونبنى طرقًا جديدة لسير الحركة المرورية التى سيتطلبها وجودنا فى الدولة، بالإضافة إلى العديد من الأشياء الأخرى. كما أن تأسيس دولتنا سيعود بالفائدة على الدول المجاورة، نظراً لأن زراعة إقليم من الأرض يرفع من قيمة الأقاليم المحيطة به بطرق لا حصر لها.

فلسطين أم الأرجنتين؟

هل يتعين علينا اختيار فلسطين أم الأرجنتين؟ سنأخذ ما يعطى لنا، وما يختاره الرأى العام اليهودى، وستقوم الجمعية بتحديد هاتين النقطتين.

الأرجنتين واحدة من أخصب دول العالم، وتمتد لمساحة هائلة، وهى ذات كثافة سكانية ضئيلة، ومناخ معتدل. ولسوف تحصل جمهورية الأرجنتين على أرباح هائلة نظير تنازلها عن جزء من أرضها لنا. مما لا شك فيه أن التسلل الحالى لليهود قد تسبب فى إثارة بعض السخط، لذلك سيصبح من الضرورى توعية هذه الجمهورية بالفارق الجوهرى الذى تتميز به حركتنا الجديدة.

أما فلسطين فهى وطننا التاريخى الخالد فى ذاكرتنا أبد الدهر، فمجرد ذكر اسم فلسطين يجذب شعبنا بقوة هائلة، فإذا ما أعطانا فخامة السلطان فلسطين، سنقوم بدورنا بتدبير جميع الموارد المالية لتركيا، حيث يتعين أن نشكل هناك جزءاً من السور الواقى لأوروبا ضد آسيا؛ حائط صد أمامى للحضارة فى مقابل البربرية. وبصفتنا دولة حيادية، يتعين علينا أن نبقى على اتصال بأوروبا بأكملها، الأمر الذى سيؤمن وجودنا. وستتم حماية مقدسات النصرانية بتخصيص وضع شرعى غير الوضع الإقليمى المتعارف عليه فى القوانين الخاصة بالأمم. يجب علينا أن نشكل حارساً شرفياً حول هذه المقدسات يكون مسئولاً عن الوفاء بهذا الواجب فى وجودنا. وسيكون هذا الحارس الشرفى الرمز الأعظم لحل القضية اليهودية بعد ١٨ قرناً من معاناة اليهود.

الطلب، الوسط، التجارة

لقد ذكرت فى الفصل الأخير: «ستقوم الشركة اليهودية بتنظيم التجارة فى الدولة الجديدة»، وسأقوم هنا بإضافة بعض الملاحظات حول هذه النقطة:

تتعرض خطة مثل التى وضعتها إلى خطر كبير إذا ما عورضت من قبل أشخاص «عمليين». فالأشخاص العمليون لا يمثلون الآن إلا قاعدة لا تزيد على بعض الرجال ممن دفنوا أنفسهم فى أخدود من الروتين، ولا يستطيعون الخروج من دائرة ضيقة من الأفكار العتيقة. وفى الوقت نفسه، فإن رأيهم المعارض له ثقله وبإمكانه إلحاق ضرر

كبير بالمشروع الجديد. وعلى أية حال، فإن هذا الشيء الجديد من القوة بحيث يمكنه إلقاء الأشخاص «العمليين» وأفكارهم الرجعية فى مهب الريح.

فى مرحلة مبكرة من إنشاء خطوط السكة الحديد الأوروبية، كان بعض الأشخاص «العمليين» يرون أنه من الحماقة إنشاء بعض الخطوط «نظراً لعدم وجود عدد من المسافرين يكفى لملء العربات». إنهم لم يدركوا الحقيقة - التى تبدو واضحة الآن - وهى أن المسافر لا يجلب السكك الحديدية، ولكن العكس من ذلك، تجلب السكك الحديدية المسافر، من ثم فإن الطلب الضمنى شىء بديهى.

إن استحالة استيعاب فكرة إنشاء تجارة فى دولة جديدة لم نحصل عليها ولم نقم بزراعتها حتى الآن يمكن تصنيفها كتلك الشكوك الخاصة بالأشخاص «العمليين» فيما يتعلق بالحاجة للسكك الحديدية. يعبر الشخص «العملى» عن نفسه إلى حد ما بهذا الشكل:

«مع التسليم بأن الوضع الحالى لليهود فى أماكن عديدة هو وضع لا يحتمل، ويتفاقم يومًا بعد يوم؛ ومع التسليم بأنه توجد رغبة نحو الهجرة؛ بل ومع التسليم بأن اليهود يهاجرون بالفعل إلى الدولة الجديدة؛ فكيف سيكسبون أقواتهم هناك، وما الذى سيكسبونه؟ علام سيقاتلون هناك؟ فالأعمال التجارية الخاصة بالعديد من الأشخاص لا يمكن تنظيمها بشكل مصطنع فى يوم واحد».

ورداً على هذا أقول: «ليس لدينا أدنى نية لتنظيم التجارة بشكل مصطنع، وبالقطع لن نحاول أن نقوم بذلك فى يوم واحد. ولكن على الرغم من أن تنظيم مثل هذه التجارة قد يكون مستحيلاً، إلا أن الترويج لها ليس كذلك. وكيف يمكن ترويج التجارة؟ من خلال أداة الطلب، وطالما تم التعرف على الطلب، ووجد الوسط، فستخلق التجارة نفسها. وإذا كانت هناك حاجة ضرورية بين اليهود لتحسين وضعهم؛ وإذا كان الوسط المطلوب إنشاؤه - الشركة اليهودية - تمتلك القوة الكافية، ستتوسع التجارة بحرية فى الدولة الجديدة».

* * *

الفصل الثالث

الشركة اليهودية

خطوط عريضة

تُشَكّل الشركة اليهودية ـ جزئيًا ـ على غرار نموذج شركة كبيرة لامتلاك الأراضى ، ويمكن تسميتها بشركة «الامتياز اليهودية» ، برغم أنها لا تمارس قوة سيادية ، ولها مهام أخرى بالإضافة إلى المهام الاستعمارية .

ستتأسس الشركة اليهودية كشركة مساهمة خاضعة للقوانين الإنجليزية ، ويتم إنشاؤها وفقًا للقوانين الإنجليزية ، وتحت الحماية الإنجليزية ، ومركزها الرئيسى هو لندن . لا أستطيع القول بمقدار رأس مالها ، وأترك ذلك الأمر لخبرائنا الماليين العديدين . و لكن تفاديًا للغموض ، سوف أضع ألف مليون مارك (ما يعادل ٠٠٠ , ٠٠٠ , ٥٠ جنيه إسترلينى أو ٠٠٠ , ٠٠٠ , ٢٠٠ دولار أمريكى تقريبًا) ، وقد يزيد أو يقل عن هذا ، وسيحدد شكل الاكتتاب ـ الذى سأقوم بتوضيحه لاحقًا ـ الجزء الذى سيدفع فى الحال من إجمالى المبلغ .

والشركة اليهودية هى منظمة ذات طابع انتقالى ، وهى تقتصر على الأعمال التجارية على نحو بحت ، ويجب التمييز بينها وبين جمعية اليهود .

فى المقام الأول ، ستقوم الشركة اليهودية بتسييل كافة الممتلكات المتروكة من قبل اليهود المهاجرين وتحويلها إلى نقود . وسيحول الأسلوب المتبع دون وقوع أزمات ، كما يصون ملكية كل فرد ، فضلاً عن أنه سييسر الهجرة الداخلية للمواطنين المسيحيين ، والتى تم توضيحها آنفًا .

السلع غير القابلة للنقل

السلع غير القابلة للنقل ، والتى ستوضع فى الاعتبار ، هى المبانى والأراضى والعلاقات التجارية المحلية . وفى البداية ، لن تلتزم الشركة اليهودية بأكثر من إجراء

المفاوضات الضرورية لتفعيل بيع هذه السلع ، وستقوم بهذه المبيعات للمتلكات اليهودية بدون مقابل ، ودون بخس الأسعار ، وستكون فروع الشركة فى المدن المختلفة هى المكاتب المركزية لبيع أملاك اليهود ، ولن تطلب الشركة سوى عمولة بقدر معين مقابل إتمام الصفقات وتأمين الاستقرار المالى .

قد يسبب تطور هذه الحركة هبوطًا حادًا فى أسعار العقارات ، الأمر الذى قد يفضى فى النهاية إلى استحالة إقامة سوق لها . وفى هذه المرحلة ستقوم الشركة بوظيفة أخرى من وظائفها ، حيث ستتولى إدارة الأملاك المهجورة حتى تتمكن من التصرف فيها بما يحقق أقصى استفادة منها . وستقوم الشركة بجمع إيجارات المنازل ، وعرض الأراضى للإيجار ، وتنصيب المديرين التجاريين ـ المكلفين بالإشراف على هذه العملية ـ من بين المستأجرين إذا أمكن . وستحاول الشركة بكل السبل تيسير تمليك الأراضى للمستأجرين المسيحيين ، كما ستقوم باستبدال تدريجى لموظفيها فى الفروع الأوروبية ببدلاء مسيحيين (من المحامين . . . إلخ) الذين لن يعملوا بأى حال من الأحوال لصالح اليهود ؛ بل من المقرر أن يكونوا وكلاء أحرارًا فى خدمة السكان المسيحيين ، حتى يتسنى إتمام كل شىء بإنصاف ونزاهة وعدالة ، دون الإضرار بمصالح الشعب الداخلية .

و فى الوقت نفسه ستبيع الشركة الممتلكات أو تقوم باستبدالها ، فتعرض لكل بيت بيتًا مقابلاً فى الدولة الجديدة ، وكذلك الحال بالنسبة للأراضى . ويفضل ـ إذا كان هذا ممكنا ـ أن تصل المنقولات إلى الدولة الجديدة بالحالة نفسها التى كانت عليها فى القديم ، وسيشكل هذا النقل مصدرًا كبيرًا و مميزًا من مصادر أرباح الشركة . ستكون المنازل المعروضة «هناك» أجدد وأجمل وأكثر راحة من المتروكة ، كما ستكون الأراضى أعلى قيمة من نظائرها المتبادلة ، ولن تتكلف الشركة الكثير ، حيث ستشترى الأراضى بأسعار زهيدة جدًا .

شراء الأراضى

بالطبع الأراضى التى تؤمنها جمعية اليهود بموجب القانون الدولى يجب أن تصبح ملكية خاصة .

لا تندرج التدابير التى وضعها الأفراد بخصوص تسوياتهم الخاصة تحت هذا التدبير العام، إلا أن الشركة ستتطلب أراض أوسع لاحتياجاتها واحتياجاتنا، ولا بد من توفير هذه الأراضى من خلال الشراء المركزى. كما ستتفاوض الشركة بشكل أساسى للحصول على الممتلكات المالية، مع التركيز على الهدف الأكبر وهو امتلاك هذه الأراضى «هناك» دون دفع مقابل مرتفع، مثلما تقوم بالبيع دون قبول سعر بالغ الانخفاض. ولن يتم فرض الأسعار، حيث ستتحدد قيمة الأراضى من قبل الشركة من خلال تنظيمها للاستيطان، بالتعاون مع جمعية اليهود المشرفة التى ستَعمل على أن يكون المشروع قناة السويس وليس قناة پنما.

ستبيع الشركة مواقع مبان لموظفيها بأسعار معقولة، كما ستسمح لهم برهنها مقابل بناء منازلهم مع خصم المبالغ المستحقة من مرتباتهم أو وضعها فى حسابهم على شكل أجور متزايدة؛ هذا إلى جانب الشرف الذى سيحصلون عليه نظير خدماتهم.

أما الأرباح الهائلة الناتجة عن المضاربة فى الأراضى، فستذهب إلى الشركة التى تستلم تلك المبالغ غير المحددة فى مقابل تحملها مخاطر ما تقوم به من عمليات، فعندما يتضمن العمل أية مخاطر، فإن الأرباح كاملة تدفع لمن تحمل المخاطر على عاتقه. ولكن، لا يُسمح بأخذ الأرباح تحت أى ظروف أخرى؛ حيث إن الأخلاق المالية تتكون من الربح بالمخاطرة.

المبانى

وهكذا ستقايض الشركة على المنازل والممتلكات العقارية، كما يجب أن يكون واضحًا لكل من لاحظ الزيادة فى قيمة الأراضى من خلال استزراعها أن الشركة لا بد أن تحقق مكاسب من ممتلكاتها العقارية. ويتضح هذا جليًا فى حالة الأراضى المحصورة داخل المدينة والريف، فالمناطق التى لم تشيد فوقها الأبنية إنما تزداد قيمتها من خلال المساحات المنزرعة المحيطة بها. فالأفراد الذين نفذوا التوسع فى پاريس قد قاموا بمضاربة ناجحة فى الأراضى، وكانت مضاربة بارعة فى بساطتها؛ فبدلاً من تشييد مبان جديدة فى المناطق الملاصقة للبيوت القديمة فى المدينة، قاموا بشراء قطع الأراضى المتاخمة لها وبدءوا عمليات البناء فى ضواحيها. وقد حقق هذا التشييد المعكوس

ارتفاعًا هائلاً غير مسبوق فى قيمة أراضى البناء، وبعد استكمال الإطار الخارجى استكملوا البناء فى وسط المدينة على هذه المواقع عالية القيمة، بدلاً من الاستمرار فى تشييد المنازل فى الأطراف.

هل ستقوم الشركة بتشييد المبانى بنفسها أم ستعهد بذلك إلى مهندسين معماريين مستقلين؟ يمكنها أن تقوم بكلتا المهمتين، وهذا ما سيحدث. وكما سيتضح لاحقًا، فقد حدث حفظ هائل لقوة العمل، ولن تضيعه الشركة، بل ستحوله إلى ظروف حياتية أزهى وأسعد. ولن يكون ذلك مكلفًا، حيث يقوم الچيولوچيون بالنظر فى احتياطى مواد البناء عند اختيار مواقع المدن.

ما هو مبدأ التشييد؟

مساكن العمال

سيتم بناء مساكن العمال (التى تشتمل على مساكن كافة العملاء المشاركين) على نفقة الشركة، ولن تشبه هذه المساكن ثكنات العمال الكئيبة فى المدن الأوروبية، ولا صفوف الأكواخ البائسة التى تحيط بالمصانع. وستكون ذات شكل موحد؛ لأنه يتعين على الشركة أن تقوم بعملية البناء بأسعار رخيصة؛ حيث إنها توفر مواد بناء بكميات كبيرة، ولكن سيتم تجميع المنازل المنتشرة فى الحدائق الصغيرة فى مجموعات جذابة فى كل منطقة؛ وسوف تلهم طبيعة الأرض إبداع الشباب من مهندسينا المعماريين الذين يملكون أفكارًا لم يعوقها الروتين بعد. وحتى إن لم يفهم الناس فحوى الخطة تمامًا فإنهم، ومهما يكن من أمر، سيشعرون براحة فى التجمعات الرحبة. وستكون رؤية المعبد متاحة من مسافات بعيدة؛ حيث إن إيماننا القديم هو رابطتنا الوحيدة. كما سيتم إنشاء مدارس مضيئة وجذابة وصحية للأطفال ومقامة على أحدث النظم المعتمدة، ومدارس للعمال لاستكمال تعليمهم وتلقينهم المعرفة الفنية، وجعلهم على دراية بالتعامل مع الآلات، وكذلك أماكن للترفيه تكون الجمعية اليهودية مسئولة عن حسن استخدامها.

نحن نتحدث الآن فقط عن المبانى وليس عما سيجرى بداخلها.

لقد ذكرت أن الشركة ستبنى مساكن للعمال بأسعار رخيصة؛ ليس فقط بسبب قرب مواد البناء الكثيرة من مواقع البناء، وليس فقط بسبب ملكية الشركة لمواقع البناء، بل أيضًا لأن العمال لا يدفعون شيئًا.

يعمل المزارعون الأمريكيون بنظام المساعدة المتبادلة فى تشييد منازلهم، ويمكن تطوير هذا النظام الودى الطفولى، قليل الإتقان، شأنه فى هذا شأن الوحدات السكنية المجمعة.

العمال غير المهرة

يجب على العمال غير المهرة الذين سيأتون فى بادئ الأمر من المستودعات الكبيرة فى روسيا ورومانيا أن يتعاونوا مع بعضهم البعض فى عملية تشييد المنازل، وسيفرض عليهم استخدام الخشب فى البناء فى البداية، حيث لن يكون الحديد متوافرًا على الفور، ثم سيتم فيما بعد استبدال المبانى الأصلية المؤقتة والغير الملائمة بمساكن أفضل.

فى البداية، سوف يتبادل العمال غير المهرة بناء هذه المساكن؛ ومن خلال عملهم سيحصلون - بعد ثلاث سنوات من حسن العمل - على ملكية دائمة لمنازلهم. وبهذه الطريقة نضمن الحصول على رجال نشطاء وقادرين، كما أنهم سيتدربون بشكل عملى على مواجهة أعباء الحياة من خلال ثلاث سنوات من العمل تحت نظام جيد.

لقد ذكرت آنفًا أن الشركة لن تدفع أجورًا لهؤلاء العمال غير المهرة، .. فكيف سيعيشون إذن؟

بشكل عام، أنا أعارض نظام المقايضة(*)، بيد أنه لا مفر من تطبيقه على هؤلاء المستوطنين الأوائل، ولسوف ترعاهم الشركة بعدة طرق، ولربما تتولى إعالتهم. وعلى أية حال، فإن نظام المقايضة هذا سيتم تطبيقه خلال السنوات الأولى فقط، ولسوف يفيد العمال من حيث حمايتهم من استغلال صغار التجار أو أصحاب الأراضى... إلخ. وبهذا ستتمكن الشركة منذ البداية من منع من اضطروا من شعبنا لأن يكونوا بائعين متجولين هنا من ممارستهم لهذه المهنة مرة أخرى هناك، كما أنها

(*) نظام المقايضة: هو دفع الأجور على شكل سلع وليس بالنقد.

ستمنع السكارى و الفاسقين. وهكذا لن يكون هناك أى أجور خلال الفترة الأولى من الاستيطان، لكن بالطبع هناك أجوراً على ساعات العمل الإضافية.

يوم العمل سبع ساعات

يوم العمل القياسى هو سبع ساعات.

لكن ذلك لا يعنى أن المئات من المهام اليومية، مثل: قطع الأخشاب والحفر وتكسير الأحجار والأعمال الأخرى، يتم عمله أثناء السبع الساعات تلك. بالطبع لا، فسيكون هناك أربع عشرة ساعة من العمل بنظام الورديات، مدة كل منها ثلاث ساعات ونصف، وسيتخذ هذا النظام الطابع العسكرى؛ فهناك أوامر وترقيات ومعاشات، وسيتم توضيح طريقة دفع المعاشات فى وقت لاحق.

يستطيع الشخص السوى أن ينجز مقداراً كبيراً من العمل المكثف خلال ثلاث ساعات و نصف، وبعد فترة مساوية من الوقت يخصصها للراحة، ولقضاء وقت مع عائلته، أو فى التعليم الخاضع للإشراف، يكون قد استعاد نشاطه للعمل مرة أخرى. مثل هؤلاء العمال يصنعون العجائب.

و بذلك يتضمن يوم العمل المكون من سبع ساعات أربع عشرة ساعة من العمل المشترك، ولا يمكن أن يتحمل اليوم أكثر من هذا.

لدى قناعة تامة بأن نجاح يوم العمل المكون من سبع ساعات أمر يمكن تحقيقه، ومحاولات تنفيذه فى بلچيكا وإنجلترا معروفة. ولقد أوضح عدد من الاقتصاديين السياسيين المتقدمين، ممن قاموا بدراسة الموضوع، أن خمس ساعات من العمل فى اليوم الواحد كافية جداً. وعلى أية حال فإن جمعية اليهود والشركة اليهودية سوف يجريان تجارب جديدة وموسعة ستفيد دول العالم الأخرى؛ وعندما ثبتت فعالية يوم العمل ذى السبع الساعات، سيتم تطبيقه فى دولتنا المستقبلية بصفته يوم العمل القانونى والقياسى.

وفى غضون ذلك، دائماً ما ستسمح الشركة لموظفيها بالعمل لسبع ساعات؛ كما ستكون دائماً فى وضع يسمح لها بهذا.

سيكون يوم العمل ذو السبع الساعات هو النداء الذى سندعو به جميع فئات شعبنا من كافة الأقطار فى العالم ، ويجب أن يأتوا جميعهم طواعية لأن دولتنا يجب أن تكون حقّا أرض الميعاد . . . .

وكل من يعمل لمدة أطول من سبع ساعات يستحق أجرًا إضافيّا نقديّا مقابل هذا العمل الإضافى ، كما يمكنه ادخار القليل من المال عندما يجد أن جميع احتياجاته يتم تلبيتها ، وأن أفراد عائلته غير القادرين على العمل يتم دعمهم من قبل المؤسسات الخيرية المركزية والمتنقلة . ومن ثم يجب تشجيع الادخار ، الذى هو سمة من سمات شعبنا ، لأنه أولاً يمهد الطريق أمام ارتقاء الأفراد للطبقات الأعلى ، وثانيًا لأن الأموال المدخرة تمثل تمويلاً احتياطيًا لقروض مستقبلية . ولن يسمح بالعمل الإضافى إلا بشهادة من طبيب ، ولن يزيد على ثلاث ساعات . سيحتشد شعبنا للعمل فى الدولة الجديدة ، وسيرى العالم كيف أننا شعب تصنيع .

ولن أشرح طريقة تطبيق نظام المقايضة ، ولا أية تفاصيل خاصة بأى من العمليات ؛ خشية أن يتسبب هذا فى إرباك القراء . لن يسمح للنساء بالقيام بالأعمال الشاقة ولا بالعمل الإضافى .

سوف يتم إراحة النساء الحوامل من أية أعمال ، وسيتم تزويدهم بالأطعمة المغذية عن طريق نظام المقايضة ، فنحن نرغب أن تتألف أجيالنا المستقبلية من رجال ونساء أقوياء .

وسوف نعلم أطفالنا كما نرغب منذ البداية ، لكنى لن أوضح هذا أيضًا .

إن ملاحظاتى حول مساكن العمال ، والعمال غير المهرة ، ونظام حياتهم ليس مثاليًا ، شأنه فى هذا شأن باقى أجزاء خطتى . فكل ما تحدثت عنه هو بالفعل قيد التطبيق الآن ، وإن كان على نطاق محدود جدًا ، غير ملحوظ أو غير مفهوم . لقد كان مفهوم «المساعدة بالعمل» الذى درسته ووعيته فى پاريس ذو فائدة عظيمة لى فى إيجاد حل للقضية اليهودية .

نظام الإعانة عن طريق العمل

إن نظام الإعانة عن طريق العمل الجارى تطبيقه فى باريس، والعديد من المدن الفرنسية الأخرى، وفى إنجلترا وأمريكا وسويسرا، هو شيء صغير، ولكنه قادر على التوسع الكبير.

ما هو نظام الإعانة عن طريق العمل؟

المبدأ هو تزويد كل فرد محتاج بعمل سهل لا يحتاج إلى مهارة، مثل قطع الأشجار لاستخدامها فى إشعال المواقد فى المنازل فى باريس. وهو نوع من أنواع الأعمال المطبقة فى السجن، حيث يقوم الشخص بأدائه دون أن يفقد شخصيته. والمقصود به هو منع هؤلاء الأفراد من ارتكاب الجرائم بسبب الحاجة، عن طريق إمدادهم بعمل واختبار رغبتهم فى القيام به. كما يجب ألا يكون الجوع أبدًا دافعًا للانتحار؛ فمثل هذا النوع من الانتحار هو أكثر الأنواع خزيًا لحضارة تسمح للأغنياء بإلقاء الفتات لكلابهم.

وهكذا فإن هذا النظام يوفر عملاً لكل فرد، إلا أنه يعانى من عيب جسيم، ألا وهو أن الطلب على إنتاج العمال غير المهرة ليس بالضخامة بحيث يغطى توظيفهم، ومن ثم يتكبد من يوظفونهم خسائر كبيرة، على الرغم من حقيقة أن المنظمة خيرية، وأن تعرضها للخسارة أمر غير مستبعد. إلا أن العمل الخيرى هنا يكمن فى الفرق بين السعر المدفوع مقابل العمل وقيمته الحقيقية؛ فبدلاً من إعطاء المتسول قيمة ما، توفر له المؤسسة عملاً تخسر فيه هذه القيمة نفسها، ولكنها فى الوقت نفسه تحول المتسول عديم الفائدة إلى شخص يكسب قوته بشرف، وقد يصل إلى فرانك ونصف. يعنى هذا أن ١٥٠ سنتيمًا من المكسب تُقابل ١٠! و بهذا يمكن القول بأن الحاصل على الإحسان بطريقة لا تسبب له مهانة قد استطاع مضاعفته خمس عشرة مرة؛ أى خمسة عشر ألف مليون فى مقابل ألف مليون!

وبينما من المؤكد أن تخسر الشركة عشرة سنتيمات، إلا أن الشركة اليهودية لن تخسر ألف مليون، بل وستحصل على مكاسب هائلة جراء هذا الإنفاق.

هذا فضلاً عن وجود جانب أخلاقى يتمثل فى أن نظام الإعانة عن طريق العمل الصغير القائم حاليًا إنما يحفظ الاستقامة من خلال الصناعة، حتى يحين الوقت الذى يجد فيه الشخص الذى ليس لديه عمل وظيفة تتناسب مع إمكاناته، سواء فى مهنته

القديمة أو فى مهنة جديدة. وفى هذه الحالة، يُسمح له بعدد ساعات محدود يوميًا للبحث عن مكان، وهو أمر تساعده فيه المؤسسات.

يكمن العيب فى هذه المنظمات الصغيرة حتى الآن فى أنها ممنوعة من الدخول فى منافسة مع تجار الأخشاب... إلخ، حيث إن تجار الأخشاب ناخبون، وقد يعترضون، ويكون اعتراضهم مبررًا. كما أن المنافسة مع أشغال السجن العمومى ممنوعة كذلك؛ لأنه يجب على الدولة أن تشغل و تطعم المجرمين فيها.

واقع الأمر هو أن الفرصة محدودة جدًا أمام المجتمعات القديمة لتطبيق نظام «المساعدة بالعمل» بنجاح.

لكن الفرصة متاحة فى المجتمع الجديد.

فنحن - قبل كل شىء - نحتاج إلى أعداد هائلة من العمال غير المهرة للقيام بالأعمال الأولى القاسية اللازمة للاستيطان؛ أعمال الطرق وزراعة الأشجار وتمهيد الأرض وإنشاء السكك الحديدية وتركيب تجهيزات التلغراف... إلخ. وسيتم تنفيذ كل هذا وفقًا لخطة ضخمة يتم وضعها مسبقًا.

التجارة

من الطبيعى أن العمالة التى سيتم تنفيذها فى الدولة الجديدة ستخلق نوعًا من التجارة، وسوف توفر الأسواق الأولى مستلزمات الحياة الضرورية فقط؛ الماشية والحبوب وملابس العمل والأدوات والأسلحة، على سبيل المثال لا الحصر. وهى أشياء سنضطر فى بادئ الأمر أن نحصل عليها من الدول المجاورة أو من أوروبا؛ ولكن يجب أن نعمل على أن نستقل بأنفسنا فى أسرع وقت، حيث سرعان ما سيدرك المقاولون اليهود الآفاق التجارية التى تملكها الدولة الجديدة.

ثم سيقوم جيش موظفى الشركة - تدريجيًا - بتوفير متطلبات الحياة الأكثر تقدمًا (من بين هؤلاء الموظفين ضباط قوتنا الدفاعية الذين سيشكلون دائمًا عُشر عدد المستعمرين الذكور، وهو عدد يكفى لكبح أى تمرد، حيث إن غالبية المستعمرين يميلون إلى الحياة السلمية).

ولسوف تخلق المتطلبات المتقدمة التى يقدمها موظفونا ذوو المناصب المرموقة سوقًا أفضل يسعى لتحسين نفسه بشكل مستمر . وبمجرد إنشاء المنازل الجديدة «هناك» ، سيرسل الرجال المتزوجون إلى زوجاتهم وأطفالهم ، كما سيرسل غير المتزوجين منهم إلى آبائهم وأقاربهم . هكذا فعل اليهود فى هجرتهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية ؛ ما أن يجد أحدهم قوت يومه وسقفًا يظله حتى يرسل إلى عائلته ؛ حيث الروابط العائلية قوية فيما بيننا ، وستتحد كل من جمعية اليهود والشركة اليهودية فى العناية بتقوية أواصرنا العائلية ، ليس فقط على المستوى المعنوى ، بل وعلى المستوى المادى كذلك . فسيحصل الموظفون على أجور إضافية عند الزواج وعند إنجاب الأطفال لأننا فى حاجة لكل ما هو موجود و ما هو آت .

فئات أخرى من المساكن

لقد عمدت فيما سبق إلى وصف مساكن العمال التى أقاموها بأنفسهم ، وتجنبت تمامًا الحديث عن الفئات الأخرى من المساكن ، وهذا ما سأتناوله الآن . سوف يقوم مهندسو الشركة بالبناء للمواطنين الفقراء أيضًا ، و يتم الدفع لهم إما عينًا أو نقدًا ؛ وسيتم تشييد حوالى مائة نوع من المنازل ، وبالطبع سيتم تكرارها . وستشكل هذه الأشكال الجميلة جزءاً من الدعاية لنا . ستضمن الشركة جودة الإنشاء ، ولن تجنى فى الواقع أى مكسب نظير بيع هذه المنازل للمستعمرين بسعر ثابت . أما بخصوص موقع هذه المنازل ، فهذا ما سيتناوله القسم الخاص بالمجموعات المحلية .

وحيث إن الشركة لا ترغب فى تحقيق أى مكسب من أعمال البناء ، ولكن فقط من أراضى المبانى ، فستحتاج الشركة أكبر عدد من المهندسين المعماريين ليعملوا بعقود خاصة . سيزيد هذا النظام من قيمة العقارات ويوفر الرفاهية التى تخدم عدة أغراض . ومن شأن الرفاهية أن تشجع على الفن والصناعة ، وتمهد الطريق أمام تقسيم الأملاك الكبيرة فى المستقبل .

أما اليهود الأثرياء الذين يضطرون الآن إلى إخفاء ممتلكاتهم النفيسة وإبقاء مآدبهم الكئيبة خلف الستائر المدلاة ، فسيتمكنون من الاستمتاع بممتلكاتهم «هناك» . فإذا ما تعاونوا على تنفيذ خطة الهجرة هذه ، فسوف يتم إعادة توظيف رءوس أموالهم

وستستخدم فى تعزيز هذه المهمة منقطعة النظير . وإذا عمد أثرياء اليهود إلى إعادة تشييد قصورهم الجميلة ، التى كانت تخطف الأبصار الحاسدة فى أوروبا فى المستوطنة الجديدة ، فسيصبح العيش فى مثل هذه المنازل الحديثة الجميلة هو سمة العصر .

بعض أشكال التصفية

تعتزم الشركة اليهودية أن تكون هى المستلم والمدير للسلع غير القابلة للنقل التى يملكها اليهود .

يسهل تصور السبل التى تتعامل بها الشركة مع المنازل والعقارات ، لكن ما هى الطريقة التى ستتبعها فى تحويل الأعمال التجارية؟

هناك عدد لا يحصى من الأساليب التى قد تكون عملية فى هذا الشأن ، والتى لا يمكن الخوض فى تفاصيلها فى هذا الموجز . وعلى أية حال لن يمثل أى منها صعوبات كبيرة ، حيث صاحب المؤسسة المعنية ـ ما أن يقرر الهجرة ـ سوف يقوم بالتسوية مع موظفى الشركة المتواجدين فى المنطقة التابع لها بأكثر أشكال التصفية فائدة له .

أما أسهل الترتيبات ، فستكون فى حالة صغار أصحاب الأعمال الذين يحتل النشاط الشخصى فى تجارتهم الأهمية القصوى ، بينما تحتل السلع والمؤسسة مرتبة ثانوية . وستوفر الشركة مجال عمل معين للتعامل مع النشاط الشخصى للمهاجر ، وسوف تستبدل بقطعة الأرض ـ ذات قرض الآلات ـ سلعة . وقد عرف عن اليهود قدرتهم على التكيف بسهولة ملحوظة مع أى شكل من أشكال كسب الرزق ، ولسوف يتعلمون سراعًا تنفيذ الصناعات الجديدة . وهكذا سيتحول عدد من صغار التجار إلى صغار ملاك أراض . وحقيقة الأمر أن الشركة ستكون مستعدة لتحمل ما يبدو أنه خسارة ناتجة عن تولى أمر أملاك فقراء المهاجرين غير القابلة للنقل ؛ لأنها بذلك تشجع الاستزراع المجانى لقطع الأراضى والذى يرفع بدوره قيمة الأراضى المتاخمة .

أما بالنسبة للأعمال متوسطة الحجم التى تتساوى ـ أو تزيد ـ فيها أهمية كل من السلع والمؤسسة عن النشاط الشخصى للمدير ، والذى تكون غالبية علاقاته غير قابلة للنقل كذلك ، فهناك أشكال متنوعة من التصفية الممكنة . وهنا تسنح فرصة الهجرة

الداخلية أمام المواطنين المسيحيين إلى المناطق التى أخلاها اليهود. ولن يفقد اليهودى المهاجر رصيد عمله الشخصى، بل سيحمله معه، ويحسن استخدامه فى تأسيس نفسه فى الدولة الجديدة، وستفتح له الشركة اليهودية حسابًا بنكيًا جاريًا له، كما يمكنه بيع السمعة الطيبة لعمله التجارى الأصلى، أو نقلها لتصرف المديرين تحت إشراف موظفى الشركة. وبوسع المديرين أن يقوموا بشراء المؤسسة أو تأجيرها، ويكون الدفع على أقساط، لكن تقوم الشركة مؤقتًا بدور الوصى الخاص بالمهاجرين فيما يتعلق بمراقبة إدارة شئونهم وتجميع الأقساط، وذلك من خلال موظفيها و محاميها.

إذا كان اليهودى غير قادر على بيع عمله التجارى، أو أن يأتمن عليه وكيلاً، أو لا يرغب فى التخلى عن إدارته الشخصية له، فبوسعه أن يظل حيث هو. فاليهودى الذى يفضل البقاء لن يخسر كثيراً على أية حال؛ حيث إنه سيتخلص من منافسة من هاجر منهم، و لن يسمع بعد ذلك النداء المعادى للسامية الذى يقول «لا تشترى من اليهود!».

أما إذا رغب صاحب العمل التجارى المهاجر فى الاستمرار فى عمله القديم فى الدولة الجديدة، فيمكنه أن يجرى الترتيبات الخاصة بذلك منذ البداية، والمثال التالى هو أفضل توضيح للمعنى الذى أريده. تقوم المؤسسة «س» بنشاط كبير فى السلع الجافة، ويرغب رئيسها فى الهجرة، فبدأ بتأسيس فرع فى مكان إقامته الجديد ثم أرسل عينات من البضائع. سيكون المستعمرون الأوائل الفقراء هم أول عملائه، ثم بعد ذلك المهاجرون من الطبقات الأعلى و الذين سيلزمهم سلع أرقى. ومن ثم تقوم «س» بإرسال بضائع جديدة، ثم فى النهاية تقوم بشحن أحدث بضائعها. يبدأ الفرع فى جنى أرباح بينما ما زال المركز الرئيسى فاعلاً، و بهذا يكون لدى «س» فرعان مثمران، فيبيع المالك مؤسسته الأصلية، أو يسلمها لمثله المسيحى ليتولى إدارتها، ويسافر هو ليتولى مسئولية الفرع الجديد.

هناك مثال آخر أفضل من الأول: «ص» وابنه من كبار تجار الفحم، ويملكان مناجم ومصانع خاصة بهما، فكيف يمكن تصفية ملكية كبيرة ومعقدة كهذه؟! فى المقام الأول: يمكن أن تقوم الدولة التى تقع بها المناجم بشرائها هى وكل ما يرتبط بها. ثانيًا: يمكن أن تتولى الشركة اليهودية أمرهما، وتقوم بالدفع جزئيًا على شكل الأراضى وجزئيًا بالنقد. الطريقة الثالثة: تحويل شركة «ص» وابنه إلى شركة محدودة.

أما الطريقة الرابعة: فهى استمرارها فى العمل تحت تصرف أصحابها الأصليين، على أن يعودوا على فترات لمتابعة أملاكهم بوصفهم أجانب، وتحت حماية القانون فى البلاد المتحضرة. يتم تنفيذ جميع هذه المقترحات يوميًا. ولسوف أذكر طريقة خامسة وممتازة، وقد تكون مربحة بشكل خاص، لكنى سأذكرها عرضًا حيث إن أمثلتها الحالية قليلة نوعًا، بغض النظر عن كون التفكير الحديث معد لاختيارها. يمكن أن يبيع «ص» وابنه مؤسستهما لجميع الموظفين بها، على أن يشكلا جمعية تعاونية ذات مسئولية محدودة، بل وربما يمكنها دفع المبلغ المطلوب بمساعدة خزانة الدولة التى لن تفرض فائدة مرتفعة.

ستكون الشركة اليهودية على استعداد لإجراء تحويل للأعمال الصغرى تمامًا كالأعمال الكبرى. بينما يهاجر اليهود ويبنون بيوتهم الجديدة بهدوء، تعمل الشركة كأكبر جهاز تحكم يقوم بتنظيم الهجرة، ويتولى مسئولية الأملاك المتروكة، ويضمن السلوك الأمثل لتحرك الممتلكات المعنوية والملموسة، ويوفر الأمن لهؤلاء الذين استقروا بالفعل.

ضمانات الشركة

كيف يمكن للشركة أن تضمن للمهاجرين أن التخلى عن بلادهم لن يتسبب فى فقرهم أو يخلق أزمات اقتصادية؟

لقد ذكرت بالفعل أن الشرفاء من المعادين للسامية - حفاظًا على استقلالهم - سيتحدون مع مسئولينا للتحكم فى تحويل ممتلكاتنا.

لكن عائدات الدولة قد تعانى من فقدان مجموعة من دافعى الضرائب الذين - برغم ضآلة تقديرهم كمواطنين - لهم قيمة عالية من حيث المال. لذا، يتعين أن تحصل الدولة على تعويض عن هذه الخسارة، وهو ما يتحقق بشكل غير مباشر من خلال تركنا الأعمال التجارية التى أسسناها باستخدام الذكاء اليهودى والصناعة اليهودية، ومن خلال السماح للمواطنين المسيحيين بالتحرك فى المناطق التى تركناها، وبذلك نكون يسرنا رفع أعداد من الناس إلى مستوى أعلى من الرفاهية بشكل سلمى لا نظير له. وقد أتت الثورة الفرنسية بنتائج مشابهة لذلك ولكن على نطاق محدود، ومن خلال إراقة الدماء على المقصلة فى جميع أنحاء فرنسا و فى ميادين المعارك فى أوروبا. إضافة إلى

ذلك، كان هناك تدمير جميع الحقوق الأصلية والمكتسبة، ومجموعة من البائعين الأذكياء هم فقط من أثروا بشراء أملاك الدولة.

سوف تقدم الشركة اليهودية مزايا للدول التى تندرج تحت دائرة نشاطها بشكل مباشر أو غير مباشر، حيث ستمنح للحكومات العطاء الأول بشأن الممتلكات اليهودية المتروكة، وتوفر للمشترين أفضل الشروط. ومرة أخرى ستتمكن الحكومات من الاستفادة من هذه الأراضى فى أغراض التطوير الاجتماعى.

سوف تقدم الشركة اليهودية كل المساعدات للحكومات والبرلمانات فى جهودها بشأن توجيه الهجرة الداخلية للمواطنين المسيحيين.

كما ستقوم الشركة بدفع ضرائب باهظة، وسيكون مركزها الرئيسى فى لندن لتكون تحت الحماية القانونية لسلطة ليست معادية للسامية فى الوقت الحالى. وإذا ما تم دعم الشركة بشكل رسمى وشبه رسمى، يمكنها أن توفر أساسًا واسعًا للضرائب، ولتحقيق هذا الغرض ستقوم بتأسيس مكاتب ضريبية فرعية فى كل مكان. كما ستدفع الشركة جمارك مضاعفة على ما تقوم به من تحويل مزدوج للبضائع. وحتى فى الصفقات التى لا تكون الشركة فيها سوى وكالة عقارات، ستظهر مؤقتًا بصفة المشترى، وسيتم وضعها فى سجل الممتلكات من الأراضى على أنها مالك مؤقت.

هناك بالطبع أمور حسابية بحتة، حيث يستوجب فى كل مكان دراسة وحسم مدى إمكانية استمرار الشركة فى العمل دون أن تكون عرضة لمخاطر الفشل، وسوف تتشاور الشركة بحرية مع وزراء المالية حول مختلف النقاط الخاصة بالقضية، وسوف يلمس الوزراء الروح الودية لمؤسستنا، وبالتالى سيقدمون كل التسهيلات التى تقع فى سلطتهم واللازمة لإنجاز مشروعنا الكبير بنجاح.

كما ستجنى الحكومات أرباحًا كثيرة ومباشرة من نقل الركاب والبضائع، وحيثما كانت السكك الحديدية مملوكة للدولة، فستتحقق عائداتها على الفور. أما إذا كانت مملوكة لشركات خاصة، فسوف تحصل الشركة اليهودية على بنود مناسبة للنقل بالطريقة نفسها التى يقوم بها كل ناقلى البضائع كبيرة الحجم. يجب أن تكون تكلفة الشحن والنقل قليلة جدًا لأفراد شعبنا، حيث سيتحمل كل مسافر نفقاته الخاصة.

سوف تسافر الطبقات المتوسطة بتذاكر وكالة كوك بينما تسافر الطبقات الفقيرة فى قطارات المهاجرين. يحتمل أن تقدم الشركة تخفيضات كبيرة على المسافرين والبضائع، ولكن يجب عليها هنا ـ كما فى أى موضع آخر ـ أن تلتزم بمبدأ عدم زيادة الإيرادات التى ستتلقاها بنسبة أكبر مما يغطى نفقاتها.

فى أنحاء كثيرة يسيطر اليهود على النقل؛ وستكون مؤسسات النقل فى مقدمة ما تحتاجه الشركة وأول ما يتم تصفيته، وإما أن يدخل الملاك الأصليون لهذه المؤسسات فى خدمة الشركة، أو أن يؤسسوا أنفسهم بشكل مستقل «هناك». وبالطبع سوف تحتاج الوفود الجديدة مساعدتهم، ولأنها مهنة مثمرة، بوسعهم ـ بل ويجب عليهم ـ ممارستها لكسب عيشهم، فإن أعداداً من هذه الأرواح المغامرة سوف ترحل. ليس من الضرورى شرح جميع التفاصيل الخاصة بعمل هذه البعثة الضخمة، بل يجب استنباطها من الخطة الأصلية من قبل مجموعة من الأشخاص القادرين على استخدام عقولهم للوصول لأفضل نظام.

بعض أنشطة الشركة

ثمة ترابط سينشأ بين العديد من الأنشطة؛ فمثلا، ستدخل الشركة بالتدريج صناعة البضائع فى المستعمرات التى ستكون بالطبع بدائية فى بدايتها. وفى البداية، سيتم تصنيع الملابس والكتان والأحذية للمهاجرين الفقراء، وسيتوافر لهم سترات جديدة فى مراكز التهجير الأوروبية المختلفة. ولن يحصلوا على هذه الملابس كنوع من أنواع الصدقة التى قد تجرح كبرياءهم، بل كنظير لملابسهم القديمة: أية خسارة تتحملها الشركة فى هذا الصدد تدخل فى إطار الخسارة التجارية. أما هؤلاء الذين لا يملكون سبيلاً للدفع، سيعملون لدى الشركة لفترة إضافية بأجرٍ مناسبٍ.

سيكون بوسع المجتمعات القائمة من المهاجرين تقديم مساعدات قيمة هنا، حيث سيقدمون للمستعمرين الخاصين بالشركة ما قدموه لليهود المهاجرين، ويمكن بسهولة التوصل لأشكال هذا التعاون.

وحتى الملابس الجديدة لفقراء المستوطنين سيكون لها معنى رمزى؛ «أنتم الآن على مشارف حياة جديدة»، وقبل موعد الرحيل بفترة طويلة، وأيضًا أثناء الرحلة، سوف

تعنى جمعية اليهود بتنمية روح جادة ومرحة من خلال الصلوات والمحاضرات الشعبية، والتعليمات حول الهدف من هذه الحملة، وتعليمات حول أمور الصحة العامة الواجب اتباعها فى أماكن الإقامة الجديدة، وتوجيهات بشأن أعمالهم فى المستقبل، لأن أرض الميعاد هى أرض عمل. وفور وصول المهاجرين، سيكون فى استقبالهم كبار موظفينا، ولكن فى غير ابتهاج أحمق، حيث إننا لم ننتزع بعد أرض الميعاد، ولكن يجب أن يشعر هؤلاء الفقراء بأنهم بالفعل فى وطنهم.

وبالطبع لن تقوم مصانع الملابس بالإنتاج بدون التنظيم الملائم، لذا ستحصل جمعية اليهود من الفروع المحلية على معلومات حول عدد المستوطنين واحتياجاتهم وموعد وصولهم، ثم تقوم بتوصيل هذه المعلومات للشركة اليهودية فى وقت مناسب، وبهذه الطريقة يتم اتخاذ الحيطة فى توفير ما يحتاجون.

تشجيع الصناعات

لا يمكن الفصل بين واجبات الشركة اليهودية وجمعية اليهود فى هذا الموجز، بل يجب أن تتحد هاتان الهيئتان فى العمل دائمًا، فتعتمد الشركة على السلطة المعنوية للجمعية ودعمها، كما لا تستطيع الجمعية الاستغناء عن المساعدة المادية للشركة. فعلى سبيل المثال، يجب خفض إنتاج صناعة الملابس للحفاظ على حالة التوازن بين العرض والطلب، ويسرى هذا التدبير على كل الصناعات الجديدة التى تتولى الشركة تنظيمها فيما بعد.

ولا يجوز أبدًا أن تقوم الشركة بسلطتها العليا بالتفتيش على المشروعات الفردية، حيث يجب أن نعمل بشكل جماعى عندما تتطلب صعوبات العمل الهائلة هذا التعاون المشترك ويجب علينا كلما أمكن احترام الملكية الفردية. يجب أن تتطور الملكية الفردية التى تعد الأساس الاقتصادى للاستقلال بشكل حر ويجب علينا احترامها، وعما قريب سيكون لعمالنا غير المهرة فرصة لبدء الطريق تجاه ملكية خاصة.

يتعين علينا أن نشجع روح المغامرة فى إنشاء المشروعات بكل السبل الممكنة، سيتم تنظيم الصناعات عن طريق وضع نظام حكيم من الواجبات واستخدام المواد الخام الرخيصة وتشكيل هيئة لجمع ونشر الإحصائيات الصناعية.

ولكن تشجيع روح المغامرة تلك يجب أن يتم بحكمة ، كما يجب تجنب المضاربة المحفوفة بالمخاطر . يجب الترويج لأى صناعة جديدة قبل تأسيسها بوقت طويل للحول دون فشل هؤلاء الذين قد يرغبون فى بدء عمل تجارى مشابه بعد ستة أشهر . عند تأسيس أى عمل تجارى ، يجب إبلاغ الشركة حتى يتسنى لجميع الأطراف المعنية الحصول على معلومات منها .

سيتمكن أصحاب المصانع من الاستفادة من المكاتب الصناعية المركزية التى تحصل فقط على عمولة تكفى ضمان استمرارها . فعلى سبيل المثال ، بوسع رجال الصناعة أن يرسلوا فى طلب ٥٠٠ عامل من العمال غير المهرة لمدة ثلاثة أيام أو ثلاثة أسابيع أو ثلاثة أشهر ، وبهذا يستطيع المكتب أن يجمع ٥٠٠ عامل من مختلف الجهات ويرسلهم على الفور لتنفيذ المهام الزراعية أو الصناعية المطلوبة . وهكذا يتم تحريك جماعات العمال من مكان إلى آخر كأنهم فرقة من الجنود ، وبالطبع لن يتم إرهاق هؤلاء العمال فى العمل ، حيث سيعملون فقط لمدة سبع ساعات يوميًا ، وبالرغم من تغير مكانهم إلا أنهم يحتفظون بالمؤسسات التى يتبعونها ، ويمارسون شروط الخدمة الخاصة بهم ، ويحصلون على أوامر وترقيات ومعاشات . وبالطبع يمكن لبعض المؤسسات الحصول على عمال من مصادر أخرى إذا ما رغبوا فى ذلك ، بيد أنهم لن يجدوا ذلك أمرًا يسيرًا . كما أنه بوسع الجمعية منع استقدام عمال عبيد من غير اليهود عن طريق مقاطعة أصحاب العمل المعاندين ، وعرقلة مرورهم ، والعديد من السبل الأخرى . ومن ثم سيكون طلب العمال الذين يعملون لمدة سبع ساعات أمرًا حتميًا ، وبذلك نجلب شعبنا تدريجيًا ، دون إجبار ، ويتم انتهاج يوم العمل المكون من سبع ساعات على نحو طبيعى .

توطين العمال المهرة

من الواضح أن ما يمكن تقديمه للعمال غير المهرة يسهل تقديمه للعمال المهرة ؛ حيث إنهم سيعملون فى المصانع طبقًا للوائح مشابهة ، وسيقوم مكتب العمل المركزى بتوفيرهم عند طلبهم .

يجب تدريب المشاركين المستقلين وأصحاب العمل الصغار بحرص بالغ على أسس التقدم العلمى السريع، حيث يجب أن يكتسبوا المعرفة الفنية حتى وإن لم يعودوا شبابًا. كما يجب عليهم دراسة قوة المياه وقدرات الكهرباء. كما أنه من مسئوليات مكتب الجمعية أن يتم اكتشاف العمال المستقلين وتوفيرهم عند الحاجة؛ فمثلا يقوم الفرع المحلى بإبلاغ المكتب المركزى: «نحتاج إلى عدد معين من النجارين وصُنّاع الأقفال ومركبى الزجاج... إلخ». عندها يقوم المكتب المركزى بالإعلان عن هذا الطلب ويتقدم العمال المناسبين إليه، ثم يسافر هؤلاء للعمل مع عائلاتهم إلى حيث هم مطلوبون، ويمكثون هناك دون الشعور بضغط المنافسة الشرسة، كما سيتم توفير منازل دائمة ومريحة لهم.

أساليب زيادة رأس المال

تم مسبقًا وضع رأس المال المطلوب لتأسيس الشركة، حيث بدا وكأنه رقم خيالى. وسيقوم الخبراء الماليون بتحديد المبلغ الفعلى اللازم، وسيكون فى كل الأحوال رقمًا معقولاً جدًا. وهناك ثلاث طرق لزيادة هذا المبلغ والتى ستضعها الجمعية فى الاعتبار. فالجمعية ـ «الوكيل الأكبر» لليهود ـ تتألف من أفضل وأخلص رجالنا ممن يتعين عليهم عدم السعى وراء الحصول على أى ربح مادى من عضويتهم. وعلى الرغم من أن الجمعية لا تستطيع أن تتملك فى البداية شيئًا سوى السلطة المعنوية، إلا أن هذه السلطة ستكون كافية لإثبات مصداقية الشركة اليهودية فى عيون الأمة. ولن تنجح الشركة اليهودية فى مشروعها إلا بعد تصديق الجمعية عليها، ومن ثم فإنها لن تتكون أبدًا من خبراء ماليين غير مميزين؛ الجمعية سوف ترجح وتختار وتحسم، ولن تعطى موافقتها حتى تتأكد من وجود أساس صحيح للتنفيذ الواعى للخطة. ولن تسمح بالتجارب بالوسائل غير الكافية، حيث يجب ضمان نجاح هذا المشروع من المحاولة الأولى؛ لأن الفشل فى البداية سوف يفضى إلى زعزعة الفكرة برمتها لعدة عقود، وربما يجعل تحقيقها مستحيلاً إلى الأبد.

والطرق الثلاث لزيادة رأس المال هى:

١ـ عن طريق البنوك الكبيرة.

٢ـ عن طريق البنوك الصغيرة والخاصة .

٣ـ عن طريق الاكتتاب العام .

الطريقة الأولى لزيادة رأس المال هى : البنوك الكبيرة ، حيث يمكن دفع المبلغ المطلوب فى أقل وقت ممكن من الجماعات المالية الكبيرة بعد مناقشة جدوى الموضوع . تكمن الميزة الكبرى لهذه الطريقة فى تجنب ضرورة دفع آلاف الملايين على الفور (لتأمين الرقم الأصلى) ، والميزة الأخرى : هى أنه من الممكن أن تكون مصداقية هؤلاء الخبراء الماليين نافعة للمشروع . إن قوتنا السياسية المستترة تكمن فى قوتنا المالية ، وهى القوة التى يؤمن أعداؤنا بشدة فعاليتها . حقيقة الأمر أنها قد لا تكون كذلك . فقراء اليهود يشعرون فقط بالكراهية التى تثيرها هذه القوة المالية ، أما دورها فى تلطيف وضعهم كمجموعة فلم يشعروا بها بعد . كما يجب توظيف الثقة فى الخبراء الماليين من اليهود فى خدمة المفهوم القومى . أما إذا شعر هؤلاء الرجال الراضون تمامًا عن حجمهم بعدم الرغبة لفعل أى شىء تجاه إخوانهم اليهود الذين يتحملون ظلمًا بمسئولية الممتلكات الكبرى الخاصة ببعض الأفراد ، فإن الخطة حينئذ تتيح الفرصة لرسم خط فاصل واضح بين هؤلاء وبين بقية اليهود .

كما أنه لن يُطلب من الخبراء الماليين دفع مبالغ ضخمة بدافع خيرى فقط ؛ فهذا ضرب من خيال . بل على العكس ، فالمتوقع من المؤسسين الرئيسيين وأصحاب الأسهم فى الشركة اليهودية أن يحققوا أعمالاً جيدة ، وأن يكونوا قادرين على القيام بتقدير مسبق لفرص النجاح المحتملة ، حيث سيكون لدى الجمعية جميع المستندات والمراجع التى قد تساعد فى تحديد مستقبل الشركة اليهودية . وعلى وجه التحديد ، تقوم الجمعية بفحص حجم الحركة اليهودية الجديدة بدقة متناهية كى تزود مؤسسى الشركة الرئيسيين بمعلومات كاملة وموثوق فيها حول حجم الدعم المتوقع . كما ستقوم الجمعية بمد الشركة بإحصائيات حديثة وشاملة عن اليهود ، وبذا تقوم الجمعية بما يسمى فى فرنسا بـ «جمعية الدراسات» ، والتى تجرى كافة البحوث الأولية السابقة على تمويل المشروعات الكبيرة . ومع ذلك ، قد لا يلقى المشروع مساعدة قيمة من قبل أقطابنا الأثرياء ، بل وربما يحاولون مقاومة الحركة اليهودية عن طريق عملائهم السريين ، وسوف نقابل هذه المقاومة بعزيمة شديدة .

إذا فرضنا أن هؤلاء الأقطاب يرغبون فى رفض هذه الخطة مبدين ابتسامة بسيطة :

فهل ينجحون فى ذلك؟

لا .

عندئذ يمكن زيادة الأموال بطريقة أخرى ، ألا وهى مناشدة الأغنياء المعتدلين من اليهود . ستتوحد البنوك اليهودية الصغيرة تحت اسم «الفكرة القومية ضد البنوك الكبيرة» ، حتى يشكلوا قوة مالية ثانية هائلة . ولكن لسوء الحظ ، سوف يتطلب هذا تمويلاً ضخمًا فى البداية ، حيث إنه يجب أن يتم الاكتتاب على مبلغ ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى بالكامل قبل بدء العمل . وبما أن تجميع هذا المبلغ سيتحقق ببطء شديد ، فستتم جميع أشكال المعاملات البنكية ويتم الاقتراض خلال السنوات القليلة الأولى . ومن المحتمل نسيان الهدف الأصلى ؛ خلال هذه المعاملات ، بعبارة أخرى سيعمد الأثرياء المعتدلون من اليهود إلى تأسيس أعمال تجارية كبيرة وجديدة ، وتُنسى فكرة الهجرة اليهودية .

إلا أنه لا يمكن اعتبار فكرة زيادة الأموال بهذه الطريقة فكرة غير عملية ، بل وتم بالفعل تجربة زيادة أموال المسيحيين لتشكيل قوة مضادة للبنوك الكبرى ، إلا أن أحدًا لم يفكر حتى الآن فى تطبيق هذه المقاومة بأموال اليهود .

لكن يمكن أن تؤدى هذه الصراعات المالية إلى أزمات شتى ، حيث ستعانى الدول التى تطرأ فيها تلك الأزمات ، وستصبح معاداة السامية على أشدها .

ومن ثم ، فإنى لا أحبذ هذه الطريقة ، غير أنى اقترحتها فقط لأنها تأتى فى إطار التطور المنطقى للفكرة .

كما أنى لا أعلم إذا ما كانت البنوك الصغيرة الخاصة سترحب بهذه الطريقة أم لا .

على أية حال ، حتى رفض الأثرياء المعتدلين من اليهود لن يضع نهاية لهذه الخطة ، بل على العكس قد يؤدى هذا إلى تناولها بطريقة جادة .

فجمعية اليهود ، بأعضائها من غير رجال الأعمال ، قد تحاول تأسيس شركة عن طريق الاكتتاب العام .

قد يتم جمع رأس المال عن طريق الاكتتاب من قبل العامة ، دون وساطة أى نقابة . وليس فقط فقراء اليهود بل والمسيحيين الذين أرادوا التخلص منهم يمكنهم الاكتتاب بقدر قليل من المال فى هذا الصندوق . ومن ثم ، سيتم تأسيس شكل جديد وخاص للاستفتاء يكفل لكل من أعطى صوته لصالح هذا الحل للقضية اليهودية أن يعبر عن رأيه من خلال الاكتتاب بقدر محدد . وسيتم قبول المبالغ المكتتبة فقط عند بلوغها القيمة المطلوبة ، وإلا سيتم إرجاع المدفوعات المبدئية .

أما إذا تم دفع المبلغ المطلوب كله عن طريق الاكتتاب العام ، فسيتم تأمين كل المبالغ الصغيرة بتجميع من المبالغ الأقل الأخرى .

و بالطبع سيحتاج كل هذا إلى العون الواضح والصريح من كل الحكومات المعنية .



الفصل الرابع

الجماعات المحلية

هجـرتنا

اقتصرت الفصول السابقة على توضيح كيف يمكن تنفيذ خطة الهجرة دون خلق أى اضطربات اقتصادية ، إلا أنه يتعذر قيام حركة عظيمة كهذه دون أن تثير مشاعر عميقة وقوية ؛ فهناك عادات قديمة وذكريات تربطنا بأوطاننا ، فلنا مهاد وقبور ، ونحن فقط نعرف كيف تتعلق قلوب اليهود بالقبور ، ولسوف نحمل مهادنا معنا ـ فهى تدعم مستقبلنا ـ لأن يكون ورديّا بسامًا. ولكن لا نملك سوى أن نترك قبورنا ، وفى هذا تضحيتنا العظمى ، ولكن لا مفر من ذلك .

لقد أخرجتنا كروبنا الاقتصادية والضغط السياسى والمهانة الاجتماعية من أوطاننا وقبورنا ، وقد أصبحنا نتنقل بصفة مستمرة الآن من مكان إلى آخر ، وهناك تيار قوى يحملنا إلى الغرب نحو الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث وجودناغير مرغوب فيه أيضًا. فأى أرض سترحب بنا ما دمنا أمة بلا وطن؟

لكننا سوف نوجد لشعبنا وطنًا ، ولسوف نعطيهم إياه ، لا عن طريق جرفهم دون رحمة من تربة أرضهم ، ولكن عن طريق نقلهم وغرسهم بعناية فى أرض أفضل . وتمامًا مثلما نرغب فى خلق علاقات سياسية واقتصادية جديدة ، سوف نحافظ على كل ما هو عزيز على قلوب شعبنا من الماضى ونجعله فى مكانة مقدسة .

لذا ، من المفترض هنا أن تكفى بعض الاقتراحات ، فمن الأرجح أن هذا الجزء من خطتى سيعتبر ضربًا من خيال. غير أن هذا ممكن وحقيقى رغم أنه يبدو الآن غامضًا وبدون هدف. ستجعل الشركة منه أمرًا منطقيّا .

الهجرة فى مجموعات

ينبغى على شعبنا أن يهاجر فى مجموعات من أسر وأصدقاء، ولكن لن يجبر أى شخص على أن يلتحق بجماعة بعينها تنتمى إلى مكان إقامته السابق. ويستطيع كل شخص أن يسافر بطريقته حالما تستقر أموره. فنظرًا لأن كل شخص سوف يتحمل تكاليف السفر بالسكك الحديدية أو بالبحر، فبطبيعة الحال سوف يختار الدرجة التى تناسبه. ويحتمل ألا يكون هناك تفرقة فى الدرجات فى القطارات أو المراكب حتى لا يشعر الفقراء بمكانتهم الضئيلة خلال رحلتهم الطويلة. ورغم أننا لا نهدف إلى تنظيم رحلات ترفيهية، إلا أننا نحاول أن نبقيهم فى مزاج جيد خلالها.

لن يسافر أحد فى فقر مدقع، ولكن من ناحية أخرى يستطيع كل من يرغب فى أن يسافر فى ترف أن يفعل ذلك. وحتى فى أفضل الظروف يمكن ألا تؤثر هذه الحركة ولسنوات عديدة قادمة على طبقات معينة من اليهود؛ ويمكن من ثم استغلال الفترات الفاصلة فى انتقاء أفضل أساليب تنظيم هذه الرحلات. يمكن للأثرياء السفر فى مجموعات إن أرادوا، مصطحبين أصدقاءهم ومعارفهم. فاليهود ـ باستثناء أغنى أغنيائهم ـ لهم علاقات محدودة جدًا مع المسيحيين، فتقتصر علاقاتهم بهم فى بعض البلدان على كونهم متطفلين أو مقترضين أو معتمدين عليهم، وبالكاد يعرفون أحدًا من الطبقات الأرقى من المسيحيين؛ لقد استمر الجيتو بالرغم من سقوط جدرانه.

وهكذا ستقوم الطبقات الوسطى باستعدادات موسعة ودقيقة للهجرة، وسيتم تشكيل مجموعة من المسافرين فى كل موقع، حيث ستقسم كل مدينة إلى أحياء تضم كل منها مجموعة، وتتواصل المجموعات فيما بينها من خلال ممثلين منتخبين لهذا الغرض. غير أنه لا يلزم اتباع هذا التقسيم بدقة، لأن مقصده هو مجرد تخفيف الإحساس بعدم الارتياح والحنين إلى الوطن لدى الفقراء أثناء رحلتهم إلى الخارج. ويحق لكل شخص السفر منفردًا أو مع أى جماعة محلية يختارها، وسوف تتشابه ظروف السفر ـ المنظمة تبعًا للطبقات ـ بالنسبة للجميع. وتستطيع أى جماعة بها عدد كاف من المسافرين أن تستأجر قطارًا أو مركبًا خاصًا من الشركة.

وسوف يوفر مكتب الإسكان التابع للشركة أماكن للفقراء عقب وصولهم، وفيما بعد، عند وصول المهاجرين الأثرياء، سيصبح من الضرورى توفير حاجتهم من السكن فور وصولهم، من خلال فنادق تشيدها مؤسسات خاصة. واقع الأمر أنه من المتوقع أن يقوم البعض من هؤلاء المستوطنين الأثرياء ببناء بيوتهم قبل أن يصبحوا مستوطنين دائمين، وهم بهذا ينتقلون من منزل قديم إلى آخر جديد.

سيكون من الإهانة لذكاء شعبنا أن أعنى بتوضيح كل شىء يجب فعله، فأى شخص مرتبط بالفكرة القومية سيعرف كيف ينشرها وكيف يجعلها حقيقة فى نطاق نفوذه. و قبل كل شىء، سوف نطالب بتعاون أحبارنا معنا.

أحبارنا

سيكون لكل جماعة الحبر الخاص بها تسافر فى زمرته، وبعد ذلك ستختار كل جماعة محلية حبرها، وسيكون لكل مكان قائده الدينى. وسوف يكرس أحبارنا - الذين ندعوهم بصفة خاصة - طاقاتهم لخدمة فكرتنا، فيلهمون تجمعاتهم بها من خلال الوعظ من المنبر، و لن يحتاجوا إلى عقد اجتماعات خاصة لهذا الغرض، فالحث عليها يمكن أن يتم فى المعابد اليهودية، وهذا بالتحديد ما يجب فعله، فنحن نستشعر الصلة التاريخية فقط من خلال إيمان آبائنا، حيث استوعبنا منذ زمن لغات مختلف الأمم لدرجة لا يمكن محوها.

وسوف يتلقى الأحبار رسائل منتظمة من الشركة والجمعية، على أن يقوموا بإذاعتها وشرحها إلى حشودهم، وسوف تصلى إسرائيل من أجلنا و من أجل نفسها.

ممثلو الجماعات المحلية

ستقوم المجموعات المحلية بتعيين لجان ممثلة لها تحت رئاسة الحبر، لمناقشة الشئون المحلية والفصل فيها.

أما المؤسسات الخيرية، فستقوم الجماعات المحلية بنقلها، على أن تبقى كل مؤسسة «هناك» مملوكة من قِبل مؤسسيها الأصليين. أعتقد أنه ينبغى ألا تباع المبانى القديمة

الخاصة بهذه المؤسسات، بل تخصص لمساعدة المسيحيين الفقراء فى المدن المهجورة. وستحصل الجماعات المحلية على تعويضات لهذا عن طريق الحصول على مواقع بناء ومرافق مجانية لإعادة بنائها فى الدولة الجديدة.

وسوف يمنح نقل المؤسسات الخيرية واحدة أخرى من تلك الفرص، والتى تطرأ فى مواضع مختلفة من مخططى هذا، والتى تهدف إلى تقديم تجربة فى خدمة الإنسانية. إن ما نقوم به الآن من عمل خيرى خاص وغير منظم، إنما يقدم القليل إذا ما قورن بحجم النفقات الذى يتضمنه. إلا أن هذه المؤسسات يجب وأن تشكل جزءًا من نظام يجعلهم فى النهاية كيانًا متكاملاً. فى مجتمع جديد، يمكن لهذه المؤسسات أن تتطور من خلال ضميرنا الحديث، كما يمكن أن تستند إلى الخبرات الاجتماعية السابقة. وإنه لأمر بالغ الأهمية بالنسبة لنا إذا ما نظرنا إلى العدد الضخم من المحتاجين لدينا. فالشخصيات الضعيفة بيننا، التى أحبطتها الضغوط الخارجية، وأفسدتها صدقات الأغنياء السهلة؛ انحدرت حتى أصبحت من الشحاذين.

وستولى الجمعية ـ بدعم من المجموعات المحلية ـ اهتمامًا كبيرًا بالتعليم العام فى هذا الشأن، ولسوف يخلق هذا تربة مثمرة لكثير من الطاقات التى تذوى الآن دون فائدة. فكل من سيبدى رغبة حقيقية فى العمل، سوف يوضع فى الوظيفة المناسبة له. لن يوجد مكان للسائلين، فمن سيرفض العمل كشخص حر، سوف يرسل إلى الملجأ.

ومن ناحية أخرى لن ننفى كبار السن فى ملاجئ الفقراء، فهذه الملاجئ هى واحدة من أقسى أشكال الصدقة التى استحدثتها طبيعتنا الطيبة المغفلة. فهناك يموت كبار السن من الشعور بالخزى والعار؛ فهم مدفونون حقًا هناك. ولكن حتى لهؤلاء الأقل ذكاء منا، سوف نترك لهم وهمًا يواسيهم بأن لهم نفعًا فى هذا العالم. وسوف نوفر مهامّ يسيرة للذين لا يقدرون على الأعمال البدنية الشاقة؛ فنفسح مجالاً للحيوية الواهنة الكامنة فى فقراء جيل كان مستضعفًا بالفعل. لكننا سوف نتعامل مع أجيال المستقبل بطريقة مختلفة؛ فسوف ينشؤوا فى حرية ليعيشوا حياة الحرية.

سنسعى لغرز مبدأ أن النجاة فى العمل فى نفوس الجميع؛ كل الأعمار والطبقات، وبهذا سوف يستعيد شعبنا قوته فى الأرض التى تطبق يوم العمل ذى السبع الساعات.

تخطيط المدن

ستقوم الجماعات المحلية بإيفاد ممثليهم المفوضين لاختيار مواقع المدن، وعند توزيع الأرض، سيتم اتخاذ جميع التدابير فيما يتعلق بتنفيذ النقل الحذر، أخذًا فى الاعتبار كافة الحقوق المكتسبة.

سيكون لدى المجموعات المحلية تخطيط المدن، حتى يعرف الناس مسبقًا الأماكن التى سيذهبون إليها؛ فى أى مدن وأى منازل سيقيمون؟ كما سيتم توزيع مسودات شاملة لخرائط المبانى المشار إليها آنفًا على كافة المجموعات المحلية.

أما مبدأ الإدارة الذى سننتهجه، فهو المركزية التامة لحكم المجموعات المحلية الذاتى، وهكذا سيتم النقل بأقل معاناة ممكنة.

أنا لا أتصور كل هذا بشكل أسهل مما سيكون عليه بالفعل؛ لكن على الجانب الآخر، لا يجب أن يتصوره الناس بشكل أصعب مما هو عليه فى الحقيقة.

هجرة الطبقات المتوسطة

ستنجذب الطبقات المتوسطة لا إراديًا إلى التيار المهاجر، حيث سيكون أبناؤهم مسئولى الجمعية أو موظفى الشركة «هناك»؛ محامون وأطباء وفنيون فى كافة المجالات، ورجال أعمال من الشباب - حقيقة الأمر كل اليهود الذين يبحثون عن فرص، والذين فروا من أوطانهم من جراء القمع فى بلادهم المحلية، ليكسبوا معايشهم فى أراضٍ غريبة - سيجتمعون فوق أرض مفعمة بالآمال والطموحات. ولسوف تتزوج بنات الطبّقات المتوسطة من هذا الشباب الطموح. سوف يرسل أحدهم لإحضار زوجته أو خطيبته، وسيرسل آخر لأبويه وإخوانه وأخواته. وسيتزوج أعضاء الحضارة الجديدة وهم صغار السن؛ سيروج هذا الأخلاقيات العامة ويغرز صفة التحمل فى الجيل الجديد؛ وهكذا سوف لا يكون لدينا ذرية ضعيفة ناتجة من زواج متأخر، أو من آباء أفنوا قوتهم يكدحون من أجل الحياة.

وسوف يجذب كل مهاجر من الطبقة المتوسطة الكثير من أقرانه ليلحقوا به.

وبالطبع سيحصل الأشجع على أفضل ما فى العالم الجديد .

وهنا يبدو أننا و بلا شك قد تطرقنا إلى أكثر الصعوبات فى مخططى هذا .

وحتى إذا تمكنا من بدأ نقاش عالمى حول المسألة اليهودية بطريقة جادة .

وحتى إذا أدى هذا النقاش إلى النتيجة الإيجابية القائلة بأن قيام الدولة اليهودية أمر ضرورى للعالم .

وحتى إذا ساعدتنا القوى على بسط السيادة على قطاع من الأرض .

كيف لنا أن نقوم بنقل جماهير اليهود من أوطانهم الحالية إلى البلد الجديد دون إجبار لا داعى له؟

فبالطبع من المفترض أن تكون هجرتهم تلك اختيارية .

ظاهرة الجماهير

بالكاد سيستلزم دفع هذه الحركة إلى الأمام مجهودات كبيرة ، فالمعادين للسامية يوفرون القوة الدافعة المطلوبة . فكل ما عليهم هو أن يفعلوا ما كانوا يقومون به من قبل ، ومن ثم فإنهم سيخلقون رغبة فى الهجرة لم يسبق لها نظير ، ولسوف يعمدون إلى تقوية أية رغبة فى الهجرة كانت موجودة من قبل . أما اليهود الباقون حتى الآن فى الدول المعادية للسامية ، فحتى أكثرهم جهلاً إنما يدركون أن المحاولات المتعددة لتغيير أماكن الإقامة على مدار القرون الماضية لم تُحدث لهم أى فائدة مستدامة . وأى أرض رحبت باليهود اليوم وقدمت لهم ميزات ، ولو أقل مما تضمنه لهم الدولة اليهودية ، ستجذب أعداداً كبيرة من شعبنا . سوف يهرع إليها الأكثر فقراً ممن لا يملكون ما قد يفقدون . ولكنى أعتقد ـ ولكل شخص أن يسأل نفسه إن كنت محقّا فى هذا أم لا ـ أن الضغط الممارس علينا يثير رغبة فى الهجرة ، حتى وإن كنا نحيا بين طبقات المجتمع الثرية . تكفى الآن الطبقات الأفقر فينا لتأسيس الدولة ، فهم يمثلون أقوى الموارد البشرية اللازمة لاكتساب الأرض ، فقليل من اليأس لا غنى عنه فى تحقيق المهام الكبرى .

لكن عندما يرفع «شعبنا المضطهد اليائس» قيمة الأرض بوجودهم فيها وبالعمل الذى يقومون به فيها، فإنهم فى الوقت نفسه يجعلونها مكانًا استيطانيًا جذابًا على نحو متزايد للناس الأيسر حالاً.

ستشعر الطبقات الأعلى بالرغبة فى أن يستقبلوا هناك. أما الحملة الأولى من المستوطنين الأفقر، فستتم من قبل الشركة والجمعية معًا، ومن المحتمل أن تلقى دعمًا إضافيًا من جمعيات الهجرة والجمعيات الصهيونية الموجودة.

كيف يمكن توجيه عدد من الناس إلى مكان بعينه دون إعطاء أوامر صريحة بذلك؟ هناك على نطاق واسع بعض المحسنين من اليهود ممن يحاولون تخفيف معاناة اليهود عن طريق التجارب الصهيونية. وقد طرحت هذه المشكلة نفسها أمامهم، وقد رأوا أنه يمكن حلها من خلال إعطاء المهاجرين أموالاً أو بتوظيفهم. ولذا تجدهم يقولون: «نحن ندفع لهؤلاء الناس ليذهبوا هناك».

لكن مثل هذا الإجراء يمثل خطأ واضحًا، ولن تكفى كل أموال العالم لتحقيق الغرض منه.

وعلى الجانب الآخر، سوف تقول الشركة: «نحن لن ندفع لهم، بل هم سيدفعون لنا. كل ما سنقدم لهم هو فقط بعض الإغراءات ليذهبوا إلى هناك».

وسيوضح الشرح التخيلى التالى المعنى الذى أريده: إذا أردنا ـ أنا وأحد المحسنين (الذى سوف نسميه «البارون») ـ أن نجتذب حشدًا من الناس إلى سهل (Longchamps) بالقرب من باريس فى ظهيرة يوم أحد حار. سوف يعمد البارون إلى أن يعدهم بإعطاء ١٠ فرنكات لكل منهم، ومن ثم فإنه بمبلغ ٢٠٠,٠٠٠ فرانك سوف يجلب ٢٠,٠٠٠ من البائسين والكادحين ممن سيلعنونه للمضايقة التى تسبب لهم فيها. أما أنا فسوف أعرض مبلغ الـ ٢٠٠,٠٠٠ فرانك كمكافأة لأسرع جواد سباق، ثم أقوم بوضع حواجز لإبعاد الناس عن (Longchamps)، عندئذ سيدفعون فرانكًا أو خمسة أو حتى عشرين ليذهبوا إلى هناك.

ستكون النتيجة أنى سأجمع نصف مليون شخص هناك، وسوف يأتى رئيس الجمهورية راكبًا عربة تجرها الخيول وسيستمتع المحتشدون بوقتهم. سيعتقد معظمهم

أنها نزهة جميلة فى الهواء الطلق على الرغم من الحرارة و التراب. وسأكون قد حصلت بالـ ٢٠٠,٠٠٠ فرانك الخاصة بى على حوالى مليون فرانك كرسوم دخول أو ضرائب على اللعب. بل وسيكون بوسعى أن أجلب العدد نفسه إلى هناك كلما أردت، بينما لن يستطيع البارون ذلك بأية حال.

سأعطى مثالاً آخر أكثر جدية على ظاهرة الجماهير حيث يكسبون معايشهم. دع شخصًا ينادى فى شوارع المدينة قائلاً: «من يرغب فى الوقوف طوال اليوم فى برد الشتاء القارس أو حرارة الصيف الملتهبة فى قاعة حديدية معرضة للشمس من كل الجهات ليتحدث مع كل مار ويعرض عليه البضائع المبهرجة أو السمك أو الفاكهة، فإنه سيحصل على ٢ فلورين أو ٤ فرانكات أو شيئًا من هذا القبيل».

كم عدد الأشخاص الذين سيذهبون إلى القاعة؟ ولمدة كم يومًا سيصمدون عندما دفعهم الجوع للذهاب إلى هناك؟ وإذا صمدوا، فما هى الطاقة التى سيبذلونها فى إقناع المارة لشراء البضائع المبهرجة أو السمك أو الفاكهة؟

فلنضع الأمر فى شكل مختلف. ففى الأماكن التى تنشط فيها التجارة ـ ولن يكون من الصعب علينا اكتشاف تلك الأماكن لأننا نوجه التجارة حيثما نشاء ـ سنبنى قاعات كبيرة ونسميها أسواقًا. يحتمل أن تكون هذه القاعات أسوأ فى بنائها وأقل فائدة مما سبق ذكره، إلا أن الناس سوف يتدافعون إليها. إلا أننا سنبذل قصارى جهدنا لتحسين بنائها وجعلها أجمل من ذى قبل. حينئذ سوف يعمد الناس ـ رجال أعمال مهرة ـ الذين لم نعدهم بشىء ـ حيث لا يمكن أن نعدهم بشىء بدون أن يكون فى ذلك خداع لهم ـ سيعمدون إلى خلق تعامل تجارى نشيط وهم فى منتهى السعادة. سوف يخاطبون المشترين بلا كلل، سيقفون على أقدامهم وقلما سيفكرون فى التعب. سيسرع كل منهم عند الفجر حتى يكون أول من يصل إلى المكان، وسوف يشكلون نقابات واتحادات وأى شىء يحافظ على استمرارية كسب قوتهم. وإذا وجدوا فى نهاية اليوم، وبعد هذا العمل الشاق، أنهم قد ربحوا ١ فلورين أو ٥٠ كرويتزراً أو ٣ فرانكات فقط، فإنهم سيتطلعون بأمل إلى اليوم التالى الذى قد يجلب لهم حظًا أوفر.

فقد ألهمناهم الأمل.

ربما يتساءل أحدكم : من أين سيأتى الطلب الذى يخلق السوق؟ هل من الضرورى أن أخبرهم مجدداً؟

فقد أوضحت سابقًا أنه عن طريق نظام «المساعدة بالعمل» يمكن أن يزيد العائد خمسة عشر ضعفًا، فينتج المليون الواحد خمسة عشر مليونًا، و١٥,٠٠٠ مليون من ١٠٠٠ مليون.

قد يكون هذا هو الحال على نطاق محدود، فهل هو كذلك على نطاق واسع؟ بالتأكيد يدر رأس المال عائداً يقل عكسيًا مع معدل نموه. ويتسبب رأس المال غير العامل ورأس المال الخامل فى در هذا العائد المنخفض، بينما ينتج رأس المال العامل عائداً متزايداً بشكل هائل، وهنا تكمن المسألة الاجتماعية.

أعساى أقر واقعًا؟ يمكننى أن أشهد اليهود الأثرياء على صدق كلامى؛ لماذا يقومون بالعديد من الصناعات المختلفة؟ لماذا يرسلون الرجال للعمل تحت الأرض لاستخراج الفحم وسط أخطار كبيرة مقابل أجر ضعيف؟ لا أتصور أن هذا أمر ممتع حتى لأصحاب المناجم، فأنا لا أعتقد أن الرأسماليين عديمو الرحمة، ولا أدعى أنى أصدق ذلك. لست أرغب هنا فى إبراز الاختلافات بل فى تيسيرها.

هل من الضرورى توضيح ظاهرة الجماهير وتركزهم فى مكان بعينه من خلال الإشارة إلى الحجاج المتقين؟

أنا لا أريد أن أجرح الإحساس الدينى لأى أحد باستخدام كلمات قد يساء تفسيرها.

سأشير باختصار شديد إلى الحجاج المحمدانيين إلى مكة والحجاج الكاثوليك إلى (Lourdes)، وإلى البقاع العديدة التى يعود منها الناس بعد حصولهم على الراحة النابعة من الدين وإلى الهوك المقدس فى ترير. ومن هنا سننشئ مركزاً لاحتياجات شعبنا الدينية العميقة، وسيتفهم وزراؤنا هذا أولاً ثم سيكونون معنا فى ذلك.

سنسمح لكل فرد «هناك» أن يجد الخلاص بطريقته الخاصة. وقبل كل شىء، سنفسح مجالاً للجماعة الخالدة من المفكرين الأحرار الذين يقومون دائمًا بفتوحات جديدة للإنسانية.

ولن تمارس أى أشكال من القوة على أى أحد إلا فى إطار ما هو ضرورى لحفظ الدولة والنظام، ولن يترك تحديد القوة المطلوبة عشوائيًا لواحدة أو أكثر من السلطات الأكثر تغيراً، بل ستحدد من قبل قوانين صارمة.

و الآن إذا دعت التوضيحات التى ساقتها بعض الناس إلى الاستدلال على أن الجماهير يمكن أن تجذب بشكل مؤقت إلى مراكز الدين والأعمال والترفيه، فسيكون الرد على اعتراضهم بسيطًا. بينما واحدة من تلك الأشياء كافية لجمع الحشود، فإنه سيتم احتساب كل مراكز الجذب هذه مجتمعة كى تبقيهم وترضيهم على نحو دائم، فهذه المراكز مجتمعة إنما تشكل هدفًا عظيمًا واحداً طال السعى وراءه، لطالما شغف الناس بتحقيقه، هدف عاش الناس من أجله، هدف أبقى الناس أحياء تحت الضغط الخارجى -ألا وهو الوطن الحر! ما أن تبدأ الحركة حتى نجتذب بعض الناس وراءنا، وسيتبعهم آخرون؛ فالبعض سينجرف فى التيار والباقى سيندفع ليلحق بنا.

أما آخر المستوطنين المترددين فهم الأقل حظّا من غيرهم، هنا وهناك.

بينما الأوائل ممن هاجروا يدفعهم الإيمان والحماس والإقدام، فسيحصلون على أفضل المناصب.

الموارد البشرية

تنشر بالخارج أفكار خاطئة حول اليهود أكثر من أى شعب آخر، ولقد أصابنا الإحباط والانكسار من جراء معاناتنا التاريخية، حتى أننا ـ أنفسنا ـ بتنا نكرر ونصدق هذه الأفكار الخاطئة. ومن أمثلة هذه الأفكار هو أننا نحب الأعمال التجارية بشكل مفرط. أما الآن فقد أصبح معروفًا أنه متى كان مسموحًا لنا بالمشاركة فى الارتقاء بالطبقات، فإننا سرعان ما نتخلى عن أعمالنا متى كان هذا ممكنًا. الغالبية العظمى من رجال الأعمال اليهود يعنون بتعليم أبنائهم تعليمًا عاليًا، ومن ثم يتحقق ما يسمى بـ «تهويد» كل المهن الفكرية. وحتى بين طبقات المجتمع الضعيفة اقتصاديًا، لا يعد حبنا للتجارة أمرًا طاغيًا كما يفترض عمومًا. فى دول أوروبا الشرقية توجد أعداد غفيرة من اليهود الذين ليسوا بتجار والذين لا يخشون العمل الجاد كذلك. ستتولى جمعية اليهود

مهمة إعداد إحصائيات علمية دقيقة عن قوتنا البشرية . وسترضى المهام والآفاق الجديدة التى تنتظر شعبنا فى البلد الجديد الحرفيين الحاليين ، وسوف تحول الكثير من صغار التجار الحاليين إلى عمالة يدوية .

فالبائع المتجول الذى يسافر خلال البلد حاملاً حزمًا ثقيلة على ظهره لا يشعر بالرضا كما يتخيل مضطهدوه . أما يوم العمل ذى السبع الساعات فسيحوله وأقرانه إلى عمال . فهم أشخاص جيدون أسىء فهمهم ، وهم يعانون الآن ربما أكثر من أى فئة أخرى . وعلاوة على ذلك ، سوف تنشغل الجمعية بتدريبهم منذ البداية ليكونوا حرفيين . وبهذه الطريقة سينمو حبهم للمكسب بشكل صحى . يمتلك اليهود طبيعة قابلة للنمو وللتكيف ، وهم مؤهلون لأى من سبل كسب العيش ولذلك يكفى العمل على جعل التجارة الصغيرة تجارة غير مربحة حتى يتخلى عنها حتى البائعين الجائلين بالكلية . ويمكن تحقيق هذا ـ على سبيل المثال ـ عن طريق تشجيع المتاجر الكبرى التى تعرض كل مستلزمات الحياة . وهذه المتاجر العامة من شأنها تدمير التجارة الصغيرة فى المدن الكبرى ، وسيمنعون وجودها على الإطلاق فى أرض الحضارة الجديدة . كما أن إنشاء مثل هذه المتاجر يعد ذا فائدة أكبر ؛ لأنها من فورها تجعل البلد صالحة لسكنى الناس الذين يحتاجون إلى مستلزمات حياتية أكثر دقة .

العـــادات

هل تعتبر الإشارة إلى عادات الإنسان العادى وراحته البسيطة متماشية مع الطبيعة الجادة لهذا الكتيب؟

أظنها كذلك ، كما أنها بالإضافة إلى هذا ، غاية فى الأهمية ، فهذه العادات البسيطة تمثل العدد الكبير من الخيوط الرقيقة التى تتشابك مع بعضها البعض لصنع حبل لا ينقطع .

هنا يجب تنحية بعض الانطباعات المحدودة ، فمن له أى معرفة بالعالم يعلم أنه من السهل نقل مثل هذه العادات اليومية البسيطة إلى أى مكان . وقد استخدمت الوسائل التقنية الحديثة ـ التى يعتزم هذا المخطط توظيفها فى خدمة الإنسانية ـ حتى الآن من أجل

هذه العادات البسيطة بشكل أساسى. ولذا يوجد فنادق إنجليزية فى مصر وعلى قمم جبال سويسرا، كما توجد مقاه نمساوية فى جنوب إفريقيا، ومسارح فرنسية فى روسيا، وأوپرا ألمانية فى أمريكا، وأفضل أنواع البيرة الباڤاريّة فى پاريس.

و عندما نرحل من مصر ثانيًا (*) فإننا لن نترك أماكن اللهو خلفنا.

بل سيجد كل إنسان عاداته مرة أخرى فى المجموعات المحلية وستكون أفضل وأجمل وألطف من ذى قبل.

* * *

(*) يريد المؤلف تشبيه رحلة اليهود من أوطانهم إلى فلسطين، برحلة بنى إسرائيل من مصر مع نبى الله موسى ـ المترجم.

الفصل الخامس

جمعية اليهود والدولة اليهودية

حماية المصالح

هذا الكتيب غير موجه للمحامين ، لذا أستطيع على عجالة ـ مثلما أفعل مع أمور أخرى كثيرة ـ أن أوضح نظريتى حول الأساس القانونى للدولة .

غير أنه يتوجب عليّ التأكيد على نظريتى الجديدة التى أعتقد أنها من الممكن أن تصمد حتى فى المناقشات مع خبراء فى علم القانون .

طبقا لرأى روسو الذى يعتبر الآن عتيقًا ، فإن الدولة تتكون بموجب عقد اجتماعى ؛ يقول روسو : «إن شروط هذا العقد محددة بدقة شديدة طبقًا لطبيعة الاتفاق ، وإن أى تغيير بسيط يمكن أن يبطل هذه الشروط . والعاقبة أنه حتى الشروط غير المنصوص عليها متشابهة فى كل مكان ، ومقبولة ومُعترف بها . . . » .

لم يكن الدحض التاريخى والمنطقى لنظرية روسو أمراً صعبًا ، ولن يكون كذلك الآن ، مهما كانت آثاره مخيفة أو بعيدة المدى . ومسألة وجود العقد الاجتماعى المشتمل على «شروط لم ينص عليها صراحة لكنها غير قابلة للتغيير» قبل صياغة الدستور ليست مسألة هامة على الصعيد العملى بالنسبة للدول التى تقوم فى ظل التشكيلات الحكومية الحديثة . وعلى أية حال ، فقد ترسخت الآن العلاقة القانونية بين الحكومة والمواطن .

ولكن قبل صياغة الدستور ، وأثناء تأسيس دولة جديدة ، من المفترض يكون أن لهذه المبادئ أهمية عملية كبيرة . ونحن نرى ونعلم أن الدول ستستمر فى الظهور ؛ مستعمرات تنفصل عن الدول الأم ، وتنشق دول تابعة عن الدول المهيمنة ، وأقاليم جديدة تتشكل فى دول حرة على الفور . وإنه لأمر حقيقى أن الدولة اليهودية يُنظر إليها باعتبارها بناء خاصًا قائمًا على أراض غير محددة . لكن الدولة لا تتأسس بمجموعة قطع من الأراضى ، بل بمجموعة من الرِّجال المتحدين تحت سيادة حاكمة .

والشعب هو الفاعل، بينما الأرض هى أساس المفعول فى الدولة، والفاعل هو الأهم. وعلى سبيل المثال، هناك سيادة ما ليس لها مفعول على الإطلاق، إلا أنها الأكثر احترامًا فى العالم، وأنا أشير هنا إلى سلطة البابا.

تعد نظرية العقلانية هى النظرية المقبولة حاليًا فى العلوم السياسية، والتى تكفى لتبرير تأسيس دولة ما، ولا يمكن دحضها تاريخيًا كما هو الحال مع نظرية العقد. وبما أنى أهتم فقط بتأسيس الدولة اليهودية، لذا أعمل فى حدود نظرية العقلانية. ولكن عندما أتناول الأساس القانونى للدولة، فإنى بذلك أتعدى هذه الحدود. فنظريات المؤسسة الدينية، أو القوى العليا، أو العقد، أو النظرية الأبوية (البطريركية) أو الكنسية، كلها لا تتوافق والرؤى الحديثة. ومن ثم، فإن البحث عن الأساس القانونى للدولة يكون إما فى الرجال (مثل النظرية الأبوية ونظرية القوى العليا ونظرية العقد) أو من فوقهم (مثل نظرية المؤسسة الدينية) أو من تحتهم (مثل النظرية الكنسية: الراعى والرعية). وتترك نظرية العقلانية هذا السؤال دون إجابة، ولكن المسألة التى شغلت أساتذة علم القانون فى كل وقت لا يمكن أن تكون أمرًا تافهًا. حقيقة الأمر هى أن الدولة تتأسس من خليط من الأمور البشرية وما فوق البشرية، وبعض الأسس القانونية لا غنى عنها فى شرح العلاقة الإجبارية التى يخضع بها الشعب للحكومة. أعتقد أن الدولة يجب أن تقوم على مبدأ حماية المصالح، حيث يمثل المواطنون المالك، بينما تمثل الحكومة الوكيل.

قدم الرومان بحسهم العالى للعدالة هذه التحفة الرائعة؛ حماية مصالح الغير «negotiorum gestio»، فإذا تعرضت ملكية شخص مظلوم للخطر، فإنه يجوز لأى شخص آخر أن يتدخل لينقذها، وفى هذه الحالة يكون هذا الشخص الآخر هو الـ «gestor»، أى الوكيل؛ الشخص المتصرف فى شئون لا تخصه، وبدون تفويض شخصى من صاحبها، إلا أن هناك التزامات أسمى فوضته فى هذا العمل. بالنسبة للدولة، يمكن أن تصاغ هذه الالتزامات فى عدة طرق لتستجيب لمختلف درجات الثقافة الشخصية التى تحظى بها القوة المتنامية للوعى العام. من المفترض أن يعمل الوكيل لمصلحة المالك ـ الشعب الذى ينتمى إليه الوكيل نفسه.

يقوم الوكيل بإدارة الملكية التى يعتبر هو مالكًا مشتركًا لها، مما يرشده إلى ضرورة تدخله حين يلزم الأمر، والتى تستلزم قيادته فى السلم والحرب، ولا تكون سلطته تحت أى ظرف من الظروف شرعية بوصفه مالكًا مشتركًا؛ حيث إن موافقة عدد من الملاك المشتركين يعتبر أمرًا حدسيًا حتى فى أفضل الظروف.

تتأسس الدولة بكفاح الأمة نحو تأكيد وجودها، وفى كفاح كهذا، يستحيل الحصول على سلطة مناسبة بشكل عارض مقدم سلفًا. ففى الواقع أن أية محاولة سابقة للحصول على قرار نظامى من الأغلبية قد تؤدى إلى تدمير المشروع برمته منذ البداية؛ حيث إن الخطط الداخلية ستجعل الشعب أعزل أمام الأخطار الخارجية، وبما أننا لا يمكننا أن نفكر جميعًا بالطريقة نفسها، لذا سيتخذ الوكيل دور القيادة ويسير فى الطليعة.

وعمل وكيل الدولة أمر مُبرر عند تعرض القضية العامة للخطر، بينما المالك لا يملك مساعدة نفسه؛ سواء عن رغبة نابعة منه أو كان مضطرًا إلى ذلك لأى سبب.

ولكن بتدخله، يصير الوكيل مماثلاً للمالك وملتزمًا تمامًا بالعقد، وتكون هذه هى العلاقة القانونية القائمة إبان ـ أو مع ـ قيام الدولة.

وهكذا يصبح الوكيل مسئولاً عن أى شكل من أشكال التقصير، وحتى عن فشل المشروعات التجارية وإهمال الأمور التى تتصل بها اتصالاً وثيقًا... إلخ. ولن أطيل أكثر من ذلك فى موضوع حماية المصالح، بل سأتركه للدولة وإلا سيأخذنا بعيدًا عن الموضوع الرئيسى. تبقى ملحوظة واحدة وهى «إذا تم اعتماد إدارة العمل من قبل المالك، فإنها تعتبر فعلية كما لو كانت قد قامت بموجب سلطته».

كيف يؤثر كل هذا على قضيتنا؟

فى الوقت الحالى، يمنع الشتات الشعب اليهودى من إدارة شئونه السياسية بنفسه؛ فضلاً عن أنه ـ بشكل أو بآخر ـ يعيشن حالة من المعاناة فى كثير من دول العالم. لذلك فهو فى المقام الأول يحتاج إلى وكيل، والذى بالطبع لا يمكن أن يكون فردًا واحدًا؛ لأنه قد يضع نفسه فى موقف سخيف أو وضيع عندما يبدو وكأنه يعمل لمصالحه الشخصية.

لذا يجب أن يكون وكيل اليهود هيئة مشتركة، وهى جمعية اليهود.

سوف يتم تأسيس هذا العضو من أعضاء الحركة القومية ـ والذى نتعامل مع طبيعته ووظائفه فى النهاية ـ قبل أى شىء آخر ، وسيكون تشكيله بسيطًا للغاية وسيتبلور بين أوساط اليهود النشطاء الذين أطلعتهم على خطتى فى لندن(*) .

سيكون للجمعية مهام علمية وسياسية ؛ حيث إن تأسيس الدولة اليهودية يستلزم تطبيق الأساليب العلمية ؛ فلا نستطيع أن نهاجر من مصر الآن باستخدام الطرق البدائية كما حدث فى الأزمنة القديمة ، بل يجب أن نحصل أولاً على بيان دقيق عن عددنا و عدتنا . ولكن ثمة علاقة بين مهمة وكيل اليهود فى العصور الأولى وبين ما نحن عليه الآن ، تمامًا مثلما هى العلاقة بين لحن جميل والأوبرا الحديثة . فنحن نعزف اللحن نفسه ولكن باستخدام الكثير من آلات الكمان والفلوت والقيثار والفيولونسيل ، مع الأضواء الكهربائية والزينة ، والكورال يرتدى سترات أنيقة مع أفضل المغنين .

يهدف هذا الكتيب إلى فتح مناقشة عامة حول القضية اليهودية ، حيث سيشترك فيها الأصدقاء والأعداء ، لكنها ـ كما أتمنى ـ لن تأخذ شكل السب العنيف أو الدفاع العاطفى ، بل جدال سياسى موسع وعملى وجاد .

سوف تقوم جمعية اليهود بجمع كافة تصريحات رجال الدولة والبرلمان والمجتمعات والجمعيات اليهودية ، سواء تم إعلانها فى أحاديث أو كتابات أو اجتماعات أو صحف أو كتب .

وبهذا تكتشف الجمعية لأول مرة ما إذا كان اليهود يرغبون حقًا فى الذهاب إلى الأرض الموعودة ، وما إذا كان ذلك واجبًا عليهم أم لا . وسيرسل كل مجتمع يهودى فى العالم بإسهاماته للجمعية لعمل إحصائيات شاملة عن اليهود .

أما المهام الأخرى مثل : قيام الخبراء بدراسة الدولة الجديدة ومواردها الطبيعية ، والتخطيط الموحد للهجرة والاستيطان ، والعمل التمهيدى للتشريع و الإدارة . . . إلخ ، فيجب أن تنشأ بشكل منطقى من الخطة الأصلية .

(*) ألقى دكتور هيرتزل خطابًا أمام اجتماع نادى المكابيين تحت رئاسة إسرائيل زانجويل فى ٢٤ نوفمبر ١٨٩٥م .

وكما سبق أن أوضحت فى الجزء العام، ستحاول الجمعية - على المستوى الخارجى - الحصول على الاعتراف بها كقوة مكونة للدولة، وستضيف إليها الموافقة الحرة لكثير من اليهود السلطة اللازمة فى علاقاتها مع الحكومات.

أما على المستوى الداخلى، أى بالنسبة لعلاقاتها بالشعب اليهودى، ستقوم الجمعية بإنشاء المؤسسات التى لا غنى عنها، والتى ستكون النواة التى ستخرج منها المؤسسات العامة للدولة اليهودية.

هدفنا الأول - كما قلت قبل ذلك - هو بسط السيادة التى يضمنها لنا القانون الدولى على جزء من العالم يكفى لإرضاء مطالبنا العادلة.

ما هى الخطوة التالية؟

احتلال الأرض

بينما كانت الأمم تتجول فى العصور التاريخية، كانوا يتركون أنفسهم للصدفة تحملهم وتدفعهم هنا وهناك، ومثل أسراب الجراد، كانوا يستقرون فى أى مكان دون تفرقة، لأن الأرض لم تكن معروفة للإنسان آنذاك. ولكن الهجرة الحديثة لليهود يجب أن تتم طبقًا للأسس العلمية.

منذ أقل من أربعين عامًا كانت عملية استخراج الذهب تتم بطريقة غاية فى البدائية. يا لها من أيام كانت محفوفة بالمغامرة فى كاليفورنيا! خبر واحد استطاع جمع اليائسين من كل أركان المعمورة؛ سرقوا أجزاء من الأرض، ونهبوا الذهب من بعضهم البعض، وأخيراً تقامروا عليه كما يفعل اللصوص.

ماذا عن اليوم؟ كيف يتم استخراج الذهب فى ترانسفال اليوم؟ لم يعد هناك متشردون مغامرون، بل چيولوچيون ومهندسون محترمون يقومون بتنظيم صناعة الذهب وتشغيل آلات عبقرية لفصل المادة الخام عن الصخور المحيطة بها. أى أن ما يترك للصدفة الآن هو القدر اليسير.

ولذا، يجب علينا أن نبحث عن الدولة اليهودية الجديدة، وأن نمتلكها بكافة السبل الحديثة الممكنة.

بعد أن نضمن الأرض، سنرسل إليها على الفور بسفينة تحمل على متنها ممثلى الجمعية، والشركة، والمجموعات المحلية، والتى ستمتلك الأرض على الفور.

وسيوكل إلى هؤلاء الرجال ثلاث مهام هى:

١ـ القيام ببحث علمى دقيق عن كافة الموارد الطبيعية للدولة.

٢ـ تنظيم إدارة مركزية صارمة.

٣ـ تقسيم الأرض.

وهذه المهام تتشابك مع بعضها البعض، وسيتم تنفيذها بما يتفق مع الرؤية التى أضحت واضحة فى الوقت الحالى.

ويتبقى شىء واحد يحتاج إلى إيضاح، ألا وهو كيف سيتم تنفيذ احتلال الأرض وفقًا للمجموعات المحلية؟

ففى الولايات المتحدة، يتم تنفيذ احتلال الإقليم المفتتح جديداً بأسلوب ساذج؛ يتجمع المستعمرون على حدود هذا الإقليم، وفى وقت محدد يقومون بالتدافع بعنف نحو الأراضى التى يودون استعمارها ويحصل كل منهم على ما يستطيع الحصول عليه.

ونحن لن نتبع هذه الطريقة فى تملك أرض اليهود الجديدة. ستباع قطع الأرض فى المقاطعات والمدن فى مزاد، على أن يكون سداد قيمتها بالعمل لا بالمال. وسيتم تسوية الخطة العامة على الشوارع، والكبارى، ومحطات المياه.. إلخ، والضرورية لسير المرور. وسيتم توحيد هذه المدن فى مقاطعات، على أن يتم بيع مواقع المدن داخل هذه المقاطعات من خلال مزاد. وستأخذ المجموعات المحلية على عاتقها تنفيذ هذا العمل، كما ستقوم بتغطية التكاليف من خلال تقييم تجريه، وستتمتع الجمعية بسلطة تحديد ما إذا كانت المجموعات المحلية تغامر بتضحيات كبيرة لا قبل لها بها. وستتسلم الجاليات الكبيرة مواقع كبيرة لتمارس نشاطها فيها. وستكافئَ التضحيات الكبيرة بإنشاء الجامعات، والمدارس الفنية، والأكاديميات، ومعاهد البحوث، إلخ، وسيتم توزيع هذه المعاهد الحكومية، حيث لا يجب أن تقتصر على العاصمة، بل على جميع أجزاء الدولة.

وستضمن المصلحة الشخصية للمشترين، والتقييم المحلى إذا لزم الأمر، ستضمن العمل الملائم لما تم تنفيذه. وبالطريقة نفسها، طالما نحن لا نستطيع - ولا نرغب فى - أن نزيل الفوارق بين الأفراد، ستظل الفوارق بين المجموعات المحلية موجودة. وستتشكل كافة الأشياء على نحو طبيعى. كما سيتم حفظ كافة الحقوق المكتسبة، كما سيخصص مبلغًا كافيًا لكل تطوير جديد.

وسيحاط شعبنا بأكمله علمًا بهذه الأمور.

فلن نركن إلى استغلال جهل الآخرين، ولا تضليلهم، ولا خداعهم.

إذ يجب الإعداد لكل شىء بطريقة منظمة على نحو مسبق. أنا فقط أشير إلى هذا المخطط: سيشترك أحرص مفكرينا فى شرح ذلك. وفى هذا المشروع، يجب توظيف كل عمل فنى واجتماعى فى عصرنا وفى العصر اللاحق الذى سيتم الوصول إليه قبل الانتهاء من التنفيذ البطىء لخطتى، حيث يجب استغلال كل اختراع ذى قيمة قدّر له الوجود فى هذه الفترة أو فى المستقبل. وبهذه الطريقة، يمكن احتلال الدولة وتأسيس الدولة بطريقة غير مسبوقة فى التاريخ، وتمتلك مقومات نجاح غير مسبوقة.

الدستور

أحد أهم المهام التى سيتوجب على الجمعية القيام بها هى تحديد مجلس علماء الخبراء القانونيين، الذى سيقوم بصياغة أفضل ما يمكن من الدساتير الحديثة. وأنا أرى أن الدستور الجيد يجب أن يتسم بالمرونة، ولقد شرحت تفصيلاً فى عمل آخر أشكال الحكومة التى أرى أنها الأفضل، وأعتقد أن الملكية الديمقراطية والجمهورية الأرستقراطية هما أفضل أشكال الدولة، حيث يتعارض فيهما شكل الدولة ومبدأ الحكومة مما يحفظ توازن القوى. وأنا من أشد المؤيدين للمؤسسات الملكية؛ لأنها تسمح بالسياسة المتواصلة، وتمثل مصالح عائلة مشهورة تاريخيًا ولدت وتعلمت لتحكم، ورغباتها محكومة، بالحفاظ على الدولة. إلا أن تاريخنا المضطرب قد حال بيننا وبين مواصلة الأشكال الدستورية القديمة على نحو مباشر دون أن نبدو سخفاء.

إن الديمقراطية بدون توازن مفيد للسلطة تعتبر إفراطًا فى التقدير والإدانة، وتجعل مناقشات البرلمان لا قيمة لها، ومن ثم تنشأ طبقة معترضة وهم الساسة المحترفون. كما

أن الأمم غير مؤهلة فى الوقت الراهن للديمقراطية المطلقة، وسوف تكون أقل استعداداً لها فى المستقبل، حيث تفترض الديمقراطية الحقيقية سيادة للعادات البسيطة، بينما تزداد عاداتنا تعقيداً يومًا بعد الآخر مع النمو التجارى والثقافى. قال الحكيم مونتسكيو: «بقاء الديمقراطية هو الفضيلة». وأين نجد هذه الفضيلة؟ أعنى الفضيلة السياسية؟ وأنا لا أثق فى فضيلتنا السياسية، أولاً: لأننا لسنا أفضل من بقية الإنسانية الحديثة؛ ثانيًا: لأن الحرية ستجعلنا نظهر صفاتنا القتالية فى المقام الأول. كما أنى أؤمن بأن حل القضايا عن طريق الاستفتاء هو إجراء غير مرض؛ لأنه لا توجد مسائل سياسية بسيطة يمكن الإجابة عليها بنعم أو لا. فالجماهير ـ أكثر من البرلمانات ـ عرضة لأن تقودها الآراء غير التقليدية، وأن تتمايل مع الحديث الحماسى. فمن المستحيل صياغة سياسة داخلية أو خارجية رشيدة فى تجمع شعبى.

يجب أن تتشكل السياسة فى الطبقة العليا ثم يتم العمل بها بشكل تنازلى، ولكن لن يتم اضطهاد أى عضو فى الدولة اليهودية، وسيتمكن كل شخص ـ بل وسيتمنى ـ أن يرتفع فيها. وهكذا تسرى بين شعبنا نزعة تقدمية؛ حيث يحاول كل فرد أن يرتقى بنفسه، ومن ثم سوف يرفع معه جميع المواطنين. وهكذا يتخذ التقدم شكلاً طبيعيًا مفيداً لكل من الدولة والفكرة القومية.

لهذا أنا أميل إلى الجمهورية الأرستقراطية التى سوف تشبع روح الطموح الموجودة فى شعبنا، والتى انحدرت لتصبح مجرد غرور تافه. تمر بخاطرى الآن العديد من المؤسسات فى ڤينسيا، ولكن يجب أن نتفادى بحذر تلك المؤسسات التى أدت إلى تدميرها. سوف نتعلم من الأخطاء التاريخية للآخرين، تمامًا كما نتعلم من أخطائنا لأننا أمة متحضرة، ونسعى كى نكون أكثر بلدان العالم حداثة. ولسوف يتقبل شعبنا الذى سيتسلم الدولة الجديدة من الجمعية، الدستور الجديد بامتنان، وسوف لن تسمح الجمعية بتعطل ممارسة أى من وظائفها من قِبل أفراد حمقى أو عدائيين.

اللغـــة

ربما يقترح أحدهم أن حاجتنا إلى لغة مشتركة قد تكون أحد ما سنواجه من صعاب، فنحن لا نستطيع أن نحدث بعضنا البعض باللغة العبرية، فمن منا له معرفة كافية بهذه اللغة تمكنه من استخدامها فى طلب تذاكر السكك الحديدية ؟ هذا أمر يتعذر القيام به.

إلا أنها صعوبة يسهل التغلب عليها، حيث يمكن لكل شخص أن يحتفظ باللغة التى يتحدث بها فى وطنه. تمثل سويسرا أفضل الأمثلة على إمكانية اتحاد اللغات. سنظل فى الدولة الجديدة على ما نحن عليه هنا، ولن نأسى بذكرياتنا عن أوطاننا التى أخرجنا منها.

ولكننا سنتوقف عن استخدام المفردات الوضيعة الخاصة بالأقليات اليهودية التى ما زلنا نستعملها؛ لأنها كانت اللغات السرية للمساجين. وسيولى المدرسون القوميون اهتمامًا كبيرًا لهذا الأمر، وسوف يتم اختيار اللغة التى تثبت أنها أفضل وسيلة للتواصل العام لأن تكون اللغة القومية، دون إجبار أحد عليها. يعد مجتمعنا من ناحية العرق مجتمعًا فريدًا ومتميزًا حيث لا يربطنا ببعضنا البعض سوى إيمان آبائنا.

الحكومة الدينية

هل سينتهى بنا المطاف إلى حكومة دينية؟ فى الواقع لا. فبينما يوحدنا الإيمان، تمنحنا المعرفة الحرية. لذلك سوف نحول دون محاولة أى نزعات دينية من قبل الكهنة إلى احتلال المقدمة. وسنبقى الكهنة داخل حدود معابدهم تمامًا كما سنبقَى الجيش داخل حدود الثكنات العسكرية، وسيتلقى رجال الجيش والكهنة قدر الاحترام الذى تستحقه وظائفهم، إلا أنهم لن يتدخلوا فى إدارة الدولة، وهو امتياز أعلى منهم، وإلا ستواجههم الصعاب من الداخل والخارج.

وسيتمتع كل شخص بالحرية فى إيمانه أو كفره كما هو حر فى جنسيته، وإذا حدث أن جاء أناس ذوو عقائد أخرى وجنسيات مختلفة ليعيشوا بيننا، فإننا سنكفل لهم الحماية الواجبة والمساواة أمام القانون، لأننا تعلمنا التسامح فى أوروبا. أنا لم أقل هذا تهكمًا لأن معاداة السامية الحالية يمكن إرجاعها فى أماكن قليلة جدًا إلى تعصب دينى قديم. فهى إلى حد كبير شعور ينشأ بين الأمم المتحضرة تحاول كل منها من خلاله أن تطرد أشباح ماضيها.

القوانين

عندما تبدأ فكرة الدولة فى أن تدخل طور التحقيق، ستقوم الجمعية اليهودية بتعيين هيئة من الخبراء القانونيين للقيام بأعمال التشريع التمهيدية. وأثناء الفترة الانتقالية،

يجب أن تراعى تلك الهيئة معاملة كل مهاجر يهودى طبقًا لقوانين البلد الآتى منها . ومع ذلك ، يجب عليهم محاولة استحداث توحيد لهذه القوانين المختلفة لتشكيل نظام حديث من التشريع قائم على أفضل أجزاء النظم السابقة . ربما يكون هذا تقنينًا نموذجيًا يجسد كل المطالب الاجتماعية العادلة للوقت الحاضر .

الجيش

تعتبر الدولة اليهودية دولة محايدة ، لذا فإنها تحتاج فقط إلى جيش محترف ، يكون بالطبع مجهزاً بكل معدات الحرب الحديثة لحفظ النظام داخليًا وخارجيًا .

العَــلَم

ليس لدينا علم ، لذا فإننا فى حاجة إليه ؛ إذا أردنا أن نقود جماعة من الناس فيجب أن نرفع رمزًا فوق رءوسهم .

أقترح أن يكون العلم أبيض به سبعة نجوم ذهبية اللون . ترمز المنطقة البيضاء إلى حياتنا الجديدة النقية ؛ بينما ترمز النجوم إلى الساعات الذهبية السبع التى يتكون منها يوم عملنا ؛ لأننا سوف نسير إلى الأرض الموعودة حاملين شارة الشرف .

معاهدات المعاملة بالمثل وتسليم المجرمين

يجب أن تتأسس الدولة اليهودية الجديدة على أساس صحيح ، أخذًا فى الاعتبار مكانتنا المستقبلية المرموقة فى العالم . لذا يجب الوفاء بكل الالتزامات المطلوبة فى البلد القديم قبل تركه وبمنتهى الدقة . ستؤمن جمعية اليهود والشركة اليهودية نقلاً رخيصًا وبعض الامتيازات الخاصة بالاستيطان لمن يقدم شهادة رسمية من السلطات المحلية تشهد بأنه ترك شئونه بشكل مشرف .

وأية دعوى خاصة وعادلة تنشأ فى البلدان التى رُحل عنها ، ستُنظر فى الدولة اليهودية أسرع من أى مكان آخر . فلن ننتظر المعاملة بالمثل ؛ لأننا سنتصرف تمامًا من أجل المحافظة على احترامنا . وهكذا ، ربما نجد فيما بعد ، أن المحاكم تصبح أكثر استعداداً للنظر فى دعاوانا مما يبدو الوضع عليه الآن فى بعض الأماكن .

وبالطبع قد تسفر الملاحظات السابقة عن استنتاج أننا سوف نعمد إلى تسليم المجرمين اليهود أسرع مما ستفعله أى دولة أخرى، حتى يحين الوقت الذى نستطيع فيه تطبيق قانون العقوبات الخاص بنا على الأسس نفسها التى تطبقها أى دولة متحضرة. ومن ثم ستكون هناك فترة انتقالية ستتسلم خلالها مجرمينا الذين أمضوا عقوباتهم المستحقة. ولكن، بعد القيام بالتعديلات، سيتم تسلمهم دون أية قيود، حيث سيدخل سجناؤنا الحياة الجديدة كذلك.

وهكذا، قد تمثل الهجرة لكثير من اليهود أزمة لها عاقبة سعيدة. فسيتم إزالة الظروف الخارجية السيئة التى دمرت كثيراً من الناس، وقد يعنى هذا التغيير خلاصًا لكثير من الضائعين.

أود هنا أن أسرد بإيجاز قصة صادفتها فى رواية لمناجم الذهب فى منطقة «ويتواتر سراند- Witwatersrand». ذات يوم جاء رجل إلى «راند» و استقر بها، وجرب أن يعمل فى كل شىء إلا مناجم الذهب، حتى أنشأ مصنعًا للثلج سار بشكل جيد. وسرعان ما حاز على تقدير عالمى بسبب احترامه، لكن بعد سنوات تم إلقاء القبض عليه على نحو مفاجئ. كان قد قام ببعض عمليات الاختلاس عندما كان مصرفيًا فى فرانكفورت وهرب منها و بدأ حياة جديدة تحت اسم مستعار. ولكنه عندما سيق كسجين، تجمع أكثر الناس احترامًا عند المحطة وودعوه وقائلين: إلى اللقاء! لأنهم كانوا متأكدين من عودته إليهم.

كم من الحقائق تكشف عنها هذه القصة! أن الحياة الجديدة يمكنها إصلاح حتى المجرمين، ونسبيًا، ما لدينا منهم هو عدد صغير جداً. تستحق بعض الإحصائيات المهمة بهذا الشأن أن تقرأ، مثل «إجرام اليهود فى ألمانيا» بقلم دكتور پى. ناتان من برلين، والذى تم تكليفه من قبل «جمعية الدفاع ضد المعاداة للسامية» بجمع إحصائيات مبنية على نتائج رسمية. صحيح أن ترويج هذا الكتيب الذى يعج بالأرقام، شأنه فى هذا شأن «الدفاعات الأخرى»، قد تم باستخدام الخطأ القائل بأنه يمكن دحض معاداة السامية عن طريق المناقشات العقلانية. فأغلب الظن أننا مكروهون لمزايانا بقدر ما نحن مكروهون لأخطائنا.

فوائد هجرة اليهود

أتصور أن الحكومات ـ طواعية أو تحت ضغط المعادين للسامية ـ ستولى اهتمامًا خاصًا لهذه الخطة ، وربما تستقبلها بتعاطف سيبدونه أيضًا لجمعية اليهود .

يرجع هذا إلى أن الهجرة التى أقترحها لن تخلق أى أزمات اقتصادية ، وستعمل خطتى هذه على إجهاض الأزمات التى تطرأ فى كل مكان نتيجة مضايقة اليهود . وسوف تبدأ فترة من الازدهار الكبير فى الدول التى تعتبر الآن معادية للسامية ، لأنه كما قلت مراراً ، ستكون هناك هجرة داخلية للمواطنين المسيحيين إلى المناطق التى سيخليها اليهود بنظام وببطء . وسيكون لهذا التحرك أثر مفيد بشكل عام إذا لقينا مساعدة على القيام به بدلاً من المعاناة فى تنفيذه . تلك نظرة محدودة على المرء أن يتحرر منها ، القائلة بأن هجرة الكثير من اليهود ستتسبب بالتبعية فى فقر للدول . فهى مختلفة عن الهجرة الناتجة عن الاضطهاد ، حيث يتم تدمير الممتلكات بالفعل كما دمرت أثناء الحرب . فالهجرة الطوعية السلمية للمستعمرين مختلفة ، يتم تنفيذها مع أخذ الحقوق المكتسبة فى الاعتبار ، والالتزام المطلق بالقانون ، وتتم فى وضح النهار وتحت أعين السلطات ، وسيطرة الرأى العام عليها . سوف تتوقف هجرة طبقة العمال المسيحيين إلى البقاع المختلفة من العالم تمامًا بسبب الحركة اليهودية .

وستستفيد الدول استفادة أخرى من الزيادة الهائلة فى صادراتها ، حيث إن المهاجرين اليهود سيعتمدون «هناك» على استيراد الإنتاج الأوروپى ، ولفترة طويلة . ستعمل المجموعات المحلية على الحفاظ على التوازن العادل ، وسيتم توفير الاحتياجات المعتادة لمدة طويلة فى الأماكن المعتادة لذلك .

وربما كانت الراحة الاجتماعية الناتجة ميزة أخرى ، بل وربما كانت واحدة من أعظم الميزات . فسيخف السخط الاجتماعى خلال العشرين عامًا أو أكثر التى ستتم من خلالها هجرة اليهود ، ولسوف تنتهى خلال الفترة الانتقالية على أية حال .

وسيعتمد الشكل الذى ستأخذه المسألة الاجتماعية اعتماداً كليًا على تطوير مواردنا التقنية . فمثلاً ، أسفرت قوة البخار عن احتشاد الناس فى المصانع حول الماكينات ، وأثر العمال على بعضهم البعض سلبًا بسبب هذا التزاحم . فالمعدل الهائل وغير المنظم

والطائش لإنتاجنا الحالى إنما سببه استمرار الأزمات الحادة التى تدمر الموظفين وأصحاب العمل على حد سواء . فبينما أسفر البخار عن تكدس الناس ، فعلى الأرجح أن الكهرباء ستفرقهم مرة أخرى ، ولربما أحدثت حالة أكثر ازدهارًا لسوق العمل . على أى حال ، سيستمر عمل مخترعينا الفنيين ـ المحسنين إلى الإنسانية بحق ـ بعد بدأ هجرة اليهود ، وسوف يكتشفون أشياء رائعة مثل تلك التى شاهدناها من قبل ، أو حتى أفضل منها بالفعل .

لم تعد كلمة «مستحيل» موجودة فى قاموس العلم الفنى . فإذا عاد شخص من القرن الماضى إلى الحياة ، سيجد الحاضر مليء بالسحر المبهم . فأينما ظهر المعاصرون باختراعاتهم ، تتحول الصحراء إلى خضرة . ومن ثم نبنى فى سنوات دولاً كان بناؤها ليستغرق قرونًا فيما مضى ، وتقدم أمريكا أمثلة فى ذلك لا حصر لها . لم تعد المسافة تشكل عائقًا . جمعّت روح عصرنا كنوزاً رائعة فى مخازنها ، وتزداد هذه الثروة يومًا بعد يوم . تنشغل مئات الآلاف من العقول فى كل بقعة فى العالم بالتفكير والبحث ، وما يكتشفه أحدهم يصبح ملكًا للعالم أجمع بعد دقيقة واحدة . وسنستخدم نحن وننفذ كل محاولة جديدة على الأرض اليهودية ؛ وكما سنقدم يوم العمل لمدة سبع ساعات كتجربة لخير الإنسانية ، فسوف ننطلق فى فعل كل الأشياء الأخرى بالروح نفسها لجعل الأرض الجديدة أرضًا للتجارب ونموذجًا للدولة .

بعد هجرة اليهود ، ستبقى المشروعات التى أنشؤوها فى مكانها ، ولن تفشل روح العمل اليهودية أينما لاقت ترحيبًا من الناس ، حيث سيسعد الرأسماليون اليهود باستثمار أموالهم فى الأماكن التى يألفون ظروفها المحيطة . وحيث إن الأموال اليهودية خرجت من البلاد بسبب الاضطهاد الحالى ، وابتلعتها فى مشروعات أجنبية فى بلاد بعيدة ، فإنها ستتدفق إلى البلاد التى خرجت منها مرة ثانية فى ظل هذا الحل السلمى ، وستساهم فى تقدم إضافى فى البلدان التى هاجر منها اليهود .

* * *

خاتمة

كم يحتوى هذا الكتيب، الذى أمعنت التفكير فيه وعكفت على مراجعته لفترة طويلة، على أشياء لم يتم شرحها، وعيوب وأفكار سطحية ضارة، وتكرار عديم الفائدة!

إلا أن القارئ المحايد الذى يتمتع بقدر كاف من الفهم ليدرك فحوى كلماتى لن ينفر من هذه العيوب. بل ستثيره ليتعاون معنا بذكائه وطاقته ليحسن من عمل ليس هو مهمة شخص واحد.

هل لم أشرح أشياء واضحة وأغفلت اعتراضات هامة؟

حاولت تناول اعتراضات بعينها، ولكنى أعلم أن الكثير منها سيظهر على مستويات أعلى أو أدنى.

وأولى الاعتراضات هى أن اليهود ليس الشعب الوحيد الذى يعيش حالة من الضيق. وأرد على هذا بأنه يمكننا أن نبدأ بإزالة جزء من هذا البؤس، حتى ولو كنا نبدأ بأنفسنا.

ويمكن القول أيضًا بأنه ينبغى ألا نخلق فروقًا جديدة بين الناس، وألا نقيم حواجز جديدة، بل ويجب أن نزيل القديم منها. إلا أن من يفكر بهذه الطريقة هو شخص كثير الأحلام؛ وستظل فكرة الوطن الأصلى فى ازدهار عندما يذهب رميم عظامه أدراج الرياح دون أثر يمكن تتبعه. فالأخوة العالمية لم تبلغ حتى أن تكون حلمًا جميلاً، فالخصومة عامل أساسى فى مساعى الإنسان.

ولكن ما أن يستقر اليهود فى أرضهم ، ربما لن يصبح لهم أعداء . وبالنسبة لأولئك الذين سيتخلفون ، فبما أن الرخاء يضعفهم ويوهنهم ، فسرعان ما سيختفون تمامًا . أظن أن دومًا سيكون لليهود ما يكفى من الأعداء ، شأنهم فى هذا شأن أية أمة . ولكن بمجرد استقرارهم فى وطنهم ، لن يتشتتوا فى أنحاء العالم مرة أخرى أبدًا . لن يعود الشتات مرة أخرى إلا إذا انهارت الحضارة فى كل الأرض ؛ وهو أمر لا يخشاه إلا الحمقى ، فلدى حضارتنا الحالية أسلحة قوية تكفل لها الدفاع عن نفسها .

وسوف تثار اعتراضات لا حصر لها على المستويات الدنيا لأن عدد الوضعاء فى هذا العالم يفوق عدد النبلاء . وقد حاولت إزالة بعض من هذه الانطباعات ضيقة الأفق ؛ ويجب على كل من يريد الانضواء تحت علمنا الأبيض ذى النجمات السبع الذهبية أن يساعد فى حملة تنويرية . فلربما يجدر بنا أولاً محاربة الكثير من أعضاء جنسنا ذوى الطبائع الشريرة والرؤية المحدودة .

مرة أخرى ، سيقول الناس إنى أزود معادى السامية بالأسلحة . ولم ذلك؟ ألأننى أعترف بالحقيقة؟ أم لأننى لا أعتقد أنه لا يوجد بيننا سوى أناس ممتازين؟

ألن يقول الناس إنى أدل أعداءنا على الطريقة التى يؤذوننا بها؟ أعترض على هذا تمامًا لأن اقتراحى هذا لن يتحقق إلا بالموافقة الحرة لغالبية اليهود . يمكن أن تتخذ إجراء ضد أفراد ، أو حتى ضد أقوى الجماعات اليهودية ، لكن لن تتخذ الحكومات إجراء ضد اليهود جميعهم ، ولا يمكن سحب الحقوق المتساوية لليهود أمام القانون بمجرد الاعتراف بها ، لأن أول محاولة لفعل ذلك سوف تدفع اليهود جميعا ـ أغنياء وفقراء على السواء ـ إلى التحول إلى جماعات ثورية . دائما ما تخلق بداية أى إجراءات رسمية ظالمة ضد اليهود أزمات اقتصادية ، ولذا ليس بوسعهم استخدام أى سلاح ضدنا بشكل مؤثر ، حيث سيجرح هذا السلاح تلك الأيدى التى تبرع فى استخدامه . وفى الوقت ذاته تنمو الكراهية بسرعة ، مع أن الأغنياء لا يشعرون مثلما يشعر بها الفقراء . ولنسأل فقراءنا ، من الذى تم إخضاعه فى طبقة العمال منذ الإزالة الأخيرة لمعاداة السامية أكثر من أى وقت مضى؟ .

وقد يقول بعض الأثرياء إن الضغط ليس شديداً بشكل يبرر الهجرة ، وإن الترحيل الجبرى يبرز عدم رغبة شعبنا فى الرحيل . هذه حقيقة ، ولكن هذا يرجع إلى أنهم لا

يعرفون إلى أين يذهبون ؛ فهم يخرجون من مشكلة ليقعوا فى أخرى . أما نحن فنريهم الطريق إلى الأرض الموعودة ، ويجب أن تحارب قوة الحماس الرائعة ضد قوة التعود المفزعة .

هل لم يعد الاضطهاد ضاراً كما كان عليه فى العصور الوسطى؟ هذا صحيح ، لكن زادت حساسيتنا حتى أننا لم نعد نشعر بنقص فى معاناتنا ؛ أنهك الاضطهاد الطويل أعصابنا .

هل سيقول البعض مجدداً إن مشروعنا لا رجاء وراءه لأننا حتى وإن حصلنا على الأرض وبسطنا سيادتنا عليها ، فإن الفقراء فقط هم من سيذهبون معنا؟ من الدقة القول إن الأشخاص الأفقر هم من نحتاج إليهم فى البداية ؛ لأن اليأس وحده يصنع فاتحين جيدين .

سيسأل البعض إذا كان الأمر ممكنًا ، فلماذا لم يك منذ زمن طويل؟

لم يكن ذلك ممكنًا قط من قبل ، أما الآن فإنه ممكن . فمنذ مائة عام - أو حتى خمسين عامًا - ماضية لم يكن هذا سوى حلم . اليوم قد يصبح الحلم حقيقة . يعرف أغنياؤنا ، ممن لديهم معرفة بالإنجازات التقنية ، ما يمكن أن يفعله المال . لذا هذا هو ما سيكون : إن الفقراء والبسطاء ، الذين لا يعرفون مدى سلطان الإنسان على قوى الطبيعة ، هم فقط من لديهم الإيمان الراسخ فى الرسالة الجديدة ، فهم لم يفقدوا قط أملهم فى الأرض الموعودة .

ها هى ذى أيها اليهود! ليست خدعة أو خرافة! يمكن لكل شخص أن يختبر حقيقتها بنفسه ؛ لأن كل واحد سيحمل معه جزءًا من الأرض الموعودة ؛ جزءًا فى رأسه ، وآخر فى يده ، وثالثًا من ممتلكاته المكتسبة .

والآن يبدو هذا أمرا طويلا لا نهاية له ، وحتى فى أفضل الظروف ستنقضى سنوات كثيرة قبل بدء تأسيس الدولة ، وفى هذه الأثناء سيعانى الآلاف من اليهود فى أماكن شتى من السب والعار والإهانة والضرب والنهب والموت . لا لن يعانوا من ذلك ، فبمجرد البدء فى تنفيذ الخطط ستتوقف معاداة السامية على الفور وإلى الأبد ، فهذه نهاية عقد الهدوء .

ستنتشر الأخبار حول تأسيس شركتنا اليهودية فى يوم واحد إلى أبعد نقاط الأرض بسرعة البرق عن طريق خطوط التلغراف .

سيتبع ذلك راحة فورية ، وستجد العقول التى أفرزتها طبقاتنا المتوسطة بوفرة ـ من فنيين وموظفين ومدرسين وضباط ومحامين وأطباء ـ مكانًا فى منظماتنا الأولى ، وهكذا يستمر التحرك فى تقدم سريع ومنظم .

ستسمع الصلوات والابتهالات فى المعابد والكنائس لنجاح عملنا ؛ حيث سيجلب راحة من عبء قديم عانى منه الجميع .

إلا أنه يجب علينا أولاً أن ننير عقول الرجال ، كما يجب أن تصل الفكرة إلى أبعد وأفقر الأماكن حيث يعيش شعبنا . سنوقظهم من سباتهم العميق لأن حياتهم أصبح لها الآن معنى جديداً . يحتاج كل شخص لأن يفكر فى نفسه فقط ، بينما ستجمع الحركة أعدادًا كبيرة .

يا له من مجد ينتظر هؤلاء الذين يدافعون عن القضية دون أنانية !

لذلك أعتقد أن أجيالا عظيمة من اليهود سوف تخرج للوجود . سيعود المكابيون للحياة مرة أخرى .

دعنى أكرر كلماتى الافتتاحية مرة أخرى : اليهود الذين يتمنون قيام دولة سوف يحصلون عليها .

أخيرا سنعيش أحراراً على أرضنا ونموت بسلام فى وطننا .

سيتحرر العالم بحريتنا و سيغتنى بثروتنا ويكبر معنا .

وكل محاولة نجريها هناك لتحقيق رخائنا ، سوف تنعكس بقوة وفائدة لصالح الإنسانية .

* * *